

A. U. B. LIBRARY

AMERICAN  
UNIVERSITY OF  
BEIRUT



F. A. U. B. LIBRARY



892.78

M66 5LhA

C.1

# تُورَةُ الْمَهْنِكِ

او

✧ المرأة الصابرة ✧

✧ وهي رواية تاريخية ادبية ✧



✧ ترجمها من اللغة الفارسية الى العربية ✧

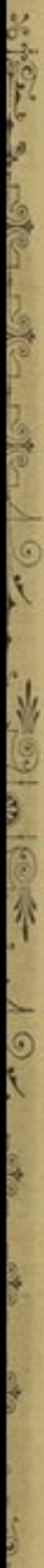
الميرزا يوسف خان

( المستوفي الاثنباني ابن اعصاب دفتر )



« طبعت في مطبعة الهلال بمصر سنة ١٢١٨هـ الموافقة سنة ١٩٠٠ م »

على نفقة ادارة الهلال





الميرزا يوسف خان

« المستوفي الاشباني ابن اعنصام دفتر »

( مترجم هذه الرواية )



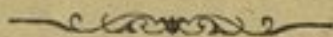
حا  
وا  
الك  
و  
ال  
في  
ا  
لل  
او  
ي  
ل  
ا  
ا



## ❁ افادة من المترجم ❁

لا يخفى على الافاضل العظام حسن وقوع الروايات لدى طبائهم الغالبة واي  
 حكمة المبلغ واكفى لتبصير المتبسط من التأمل بنظر ناقب في مجاري حالات الامم  
 واستنباه احوال الغابرين لانها تشمل على كثير من الشؤون الجمة التي لا يمكنني  
 التوسع في استيعابها وبيان حقائقها على ان مطالعها يتعظ بها ويعظ ويستفيد منها  
 وينيد . ثم ان رواية ( ثورة الهند ) التي نحن بصدد ترجمتها للعربية من الروايات  
 النادرة الصحيحة الآخذة بمجامع القلوب ترجمت من الانكليزية الى الفارسية وطبعت  
 في طهران عاصمة دولتنا سنة ١٣٠٤ فقبلتها الطبايع وتناقلتها الالسنه . فاحسبت ان  
 اعربها واهدتها لاندية الفضلاء الذين لا يجيدون قراءة اللغة الفارسية فترجمتها الى  
 للعربية بالحرف الواحد وما آليت جهداً في نتميق العبارة وان عثر فيها على قافية  
 او سجع فانه قد جرى على سن قلبي . ومع كوني فارسي الاصل معترفاً بانني لست من  
 يجمل جواده في هذا المضمار ولا من لم اقتدار على خوض عباب ذلك البحر لا ارى  
 لي باعثاً لتهميد العذر ان وقفوا على زلاتي وقلما ينسى لكاتب العصمة منها . هذا واعلم  
 اني لا اخلو من ودود يدح او حدود يقدح فاقول ان احسنت فحسني وان كنت  
 اسأت فارجو الاغراض لا الاعتراض

( تبريز . ايران ) ( الميرزا يوسف خان المستوفي الاثنياني )



## ❦ فاتحة الرواية ❦

لا يخفى على الأذكياء المندرجين بأحوال العالم . والمصطلعين بنف التاربخ ان من اعظم السوانح المدهشة واجمع الوقائع الموحشة التي انفقت في الكون الارضية عام ١٨٥٧ من الميلاد الموافق سنة ١٢٧٤ من الهجرة هي بلوى الهند التي اكتنفت افطار هندستان بتمامها . فتزلزلت من وقوعها اركان تحبيلات السياسيين وانهدمت مباني سياسة انكنتن وزعزعت الفتن الداخلية وعصاوة الاهاالي اسبلاءها وكادت تنفضي سلطتها عن هذه المستعمرة الجديدة واورثت تلك الانقلابات هذه الدولة العظيمة خسائر جسيمة من المال والرجال ما يفوق طور التصديق

اما عل تلك الفاجعة واسبابها الظاهرية على ما وقع عليها اقرار ساسة انكنتن فهي انها نشأت من توارد الافكار على هيجان ملي وتظاهرات عظيمة ارادوا بها التخلص من ربة تسلط انكنترا ونفوذها واستقلالها . والذي سبب اهاجة الخواطر سوء معاملة لورد ( داهوزي ) حاكم الهند وعدم مبالاة وقلة حزمه وتحقير للناس فزرعت سببات سياستو في احكامه بذر البغضاء والنفور في القلوب فمات الطاباغ وانكسرت الضامر فبلغ سبل العصيان الرثي . وخربت قصور وعمرت قبور

مضت على الامة البريطانية مدة خمسة وسبعين سنة من بدء تسلطها على هذه الممالك النسيجة والمسالك الوسيعة حتى تغلبت عليها وحسنت تصرفاتها في اقاليمها الشاسعة فما لبثت ان تسابقت جرائدها وتزاحمت على ثلثة اعداء صحتها بما بني عن كمال سرورهم وغلبة غرورهم فمن بعض ذلك ما يأتي :

« طالما سعت الملل واشتباقت الدول وحاول السلاطين بعزمهم الراسخ وهمهم الثابتة ان يستعمروا اقاليم الهند او يملكوا بقعة من بقاعها او يسخرها بلدآ من بلادها زيادة على سلطانهم كما هو دأبهم لكنهم طلبوا محالآ وحالت الاقدار بينهم وبين تمنياتهم فسخرتها دولة انكنتن بتدابيرها الصائبة وسيوفها الباترة ونوغلت جيوشها في سهولها وحزونها وارجنت القلوب بسطوتها حتى رقت مراقي الفلاح وانفادت لها هذه الشعوب المختلفة والامم الوحشية وانبعوا قوانينها باسمهل الوسائل تحكمت دولة انكنتن على اكثر من ٢٥٠ مليون نسمة تقريبا »

هذا وما انتفضت برهة من الزمان على تلك الوداعة والاستكانة حتى حدث هذا الشعب والهباج فتغيرت اطوارها وخضعت نواصيها وابتظمتها نار التنن من سنة الغنلة ونحركت حرازا تمكنت في القلوب منذ زمان طويل وغلت مراجل الصدور بالصفائح الكامنة وجعلت نخرخ وتبيض فيها حتى هاجوا وماجوا وعمت نار النساد كل الارحاء واتسع الخرق على الرافع

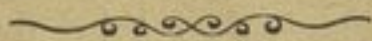
و اول طغيان ظهر ضد انكتهن من الفرقتين الخامسة عشرة والعشرين فاتبعها جرم غنبر ونجمت طوائف الهنود ونحالوا على الثبات في الثورة فاضطربت نيرانها اولاً من ( بنكاه ) ثم اتشبت وازدادت بالتدريج حتى اشتملت بالامصار واحاطت بها احاطة العنود بالاعتاق

وفي ابتداء الحرب انهزمت الطغاة في ميرته ثم اجتمع الاهالي فقبلوا سلطانهم الاسبق الذي كان من سلالة الكوركانين على السلطنة فقبولاً سربر الملك في ( دهلي ) وفي اثناء ذلك ثار اهل ( كلكوتا ) بتمامها وقتل في مدة الهياج ثلاثة من قواد انكتهن واعظم ضباطها وطغت على اثرها اهالي مملكة ( اوده ) واستقرت العساكر والمعصاة على التنك والقتل حتى ضاقت مبادين المجال ونهلت ثنايا المنايا

ثم انسعت دائرة النساد فادركت بلاد ( آكن ) و ( بومباي ) وكادت دولة انكتهن في هذه الازمان مشاق كثيرة ونفقات باهظة حتى تمكنت من فتح دهلي فدخلتها قهراً في ٢٠ ( سبتمبر ) فأسروا حاكمها مع حاشيته وابنائيه وقتلوه جميعاً ودخلت بقية العساكر بلدة ( كنهاو ) فنقضوها . وخلاصة المقال ان الثورات امتدت الى اوائل الصيف من سنة ( ١٨٥٨ ) الميلادية ثم ارتفعت حجب الهياج وانتهت اخيراً بواسطة ( كاميل ) القائد العام لعساكر انكتهن وصفا جو الهند من غبار الثورات رويداً رويداً وعادت الامنية وانقضت من هذا التاريخ قوانين « كيباني هند » وعينوا لها حاكماً مستقلاً وأمحت عنها الرسوم المعجبة للفن . ولقب ( كاميل ) السردار المومي اليو بلقب ( لورد كليلد ) في ازاء خدماته النافذة . واتخذت مملكة الهند بعد ذلك وزيراً في عداد وزراء انكتهن بنيم في عاصمتها لوندرة ليبحث عن شؤونها النافعة ويدفع مضارها

وفي اوقات امتداد الثورة تراكمت سحب الخنوف وتصادمت مع اعمال اناس

كثيرين من اناث وذكور وشبان وشيوخ فسقوا كؤوس المنايا مدهنة وبقيت من بقاياهم  
 جماعة من النساء والعجزة يتقلبون على تراب الذل والهوان . وكانت بواخر الدولة الانكليزية  
 تحمل هؤلاء النساء الى انكلترة من جملةهم هذه النعيصة الاسبينة الخاتم الانكليزية المسماة  
 ( مسترس هورتسنت ) التي قصت قصتها في اوئل ( فندق ) بياريس للدكتور  
 ( فاكس مينارد ) الطبيب مداوبها ومعالج اسقامها . ولما كانت قصتها تخوي عبراً  
 عجيبة ترجمناها ليعتبر الزافلون في حال الامنية بها ولتنبه ارباب الثروة واليسار .  
 واصحاب العمة والاعتبار . ويحترزوا من تبذل الحال . والابتلاء بالادبار بعد  
 الاقبال وليؤيدوا وظائف الشكر ويسألوا الله تعالى ان يديم عليهم ظلال رافة  
 السلاطين العظام . فانهم العروة الوثقى في نيل المرام . ولهن الثورة سوانح منصلة  
 ضربنا عن ذكرها صفحاً اذ لا طائل نحتها وانما اوردنا هذه العجالة تمهيداً للمقدمة  
 ولنشرع الآن في المنصود



مقدمة

❖ منقولة من قول الدكتور فلكس مينارد الطبيب ❖

قال الدكتور المشار اليه كنت في فندق بياريس على حسب عادة الجنازين  
 وكانت امرأة انكليزية اسمها مسترس هورتسنت اتخذت في هذا الفندق منزلاً لها  
 وهي من النساء اللاتي ابتلن بالخطوب عند ثورة الهند الشهيرة واستيلاء الة الباغية  
 فيها وكانت سفن انكلترة تحمل اوائك النعيصات في كل شهر مرتين الى مستشفى عاصمتها  
 لاصلاح احوالهن اما هذه الامراة فقد كانت لها حاشية واقوام بياريس فلما جاءت لوتدرة  
 اقامت بها برهة ثم رجعت الى بياريس ترجو ناطفهم وتقدم فاعتراها مرض في هذا  
 المقام وانفق الي نوليت معالجتها

ونحن الاطباء لنا غيبة في نجس الامور المؤدية الى الامراض والداعية لها  
 نبحث عنها ادق بحث ولا غرو فان الفحص والتنقيب من شرائط حرفتنا فسادتها  
 عن علة انحراف مزاجها وابتداء وقوع المرض فشرحت لي من قصتها الموجعة

ما نقطع لها قلبي من الحزن والاسف ووضع عندي ان أكثر مرضها من عارضة البلايا والغصص التي تجرّ عنها . ومرضها الجسماني لا يقاس بأمراضها الروحانية . وحصل لي من تفريراتها انها كانت منهولة في الهند غريقة في بحور النعم ورفاه الحال . اما بعلمها فكان رجلاً رقيق الجانب سهل الخلق صافي السيرة تعلقه التؤدة والوفار وكانت ابنتها زاهية في جلباب الشباب ذات قوام مباد وجمال فائق . وكان ابنها طفلاً مليحاً حسن الشكل لطيف الخابل وكان صهرها شهياً مقداماً ودبياً متصفاً بالصفات الحسنة والمزايا السامية يقتل في هذه العائلة أولاً زوجها وصهرها ثم بنتها وطفلها ويعتبرها النقر المدقع

ولما سمعت بعض قصتها تحققت عندي بالفوائد الطبيعية ان هذا الداء الذي اعتراها داء عضال لان المرض الجسماني وان كان شديداً يمكن ان يعالجه الطبيب الماهر بالادوية النافعة اما الامراض النفسانية فيعجز حذاق الاطباء عن معالجتها الا من استطاع خرق العادة وهو امر عسير . ولغرابة ماجرى لها استأذنتها بترجمة قصتها للافرنسية ليكون ذلك تذكرة تاريخية لها فاجازتني وبادرت الى الترجمة وهاك تفصيلها

## الفصل الاول

### امارات الهياج

في اليوم الحادي عشر من شهر ( مايو ) سنة الف وثمانمائة وسبع وخمسين من الميلاد الموافقة سنة الف ومائتين وخمس وسبعين من الهجرة كانت شموس سعادتنا مشرقة وكنا في ظلالها ناعمين نرفل في ذبول الرفاهة لا نتلك نصارة الاوقات خادمة لنا والعز سادلاً رواقه علينا وكانت ثروتنا تزداد يوماً فيوماً وبعد ان بست منذ مدة ست عشرة سنة من الاتيان بولد من الله جل وعلا عليّ بو وجمالني فربنة التشكر على نعمائه . كأنه تبارك وتعالى نظر نظراً رحمة الى احوالي الآتية ومصائبي المستقبلة فوهب لي هذه الموهبة العظيمة لتكون واسطة لاشتغالي ايام انفرادي وابتلائي

وقد كنا عازمين على زفاف ( آكن ) نتى وارسالها الى دار زوجها وكان زوجي مصمماً على ارجاع عائلتنا من الهند الى انكلترة وقد اوعز اليّ انه يريد بيع مزرعتنا التي تنبت النيل ( النيل نوع من الصبغ تصبغ به الملابس وهو اعظم محصول الهند واغلاء قيمة وهو معروف كالبنم ) بما قطعياً او ايجارها لأحد الزراع فيستريح من اعباء القيام بعابها وجمع محصولها وانه عازم على الرجوع الى الوطن . ولانتمام ذلك القصد خابر الدلائن الذين لم خبئة واطلاع بقيمة المزرعة وما زالت المذاكرة جارية في ( مدراس ) و ( بومباي ) وكانت الاجوبة التي تصل اليها منهم مشتملة على معذرة في حصول املنا من بيع المزرعة منذرة في ختامها بالحوادث والانتقافات التي ستحدث في قارة اوربا عموماً وفي الهند خصوصاً او هي قرية الظهور

في جملة كتبهم اليها كتاب فحواه « ان العساكر الهندية في تنكالة وسائر النقط اتقوا على الثورة والهياج » ولقد الثورة اسباب منها ان رصاصات البنادق التي كانت تحمل الى الهند كان ارباب المعامل يدهنونها بدهن خاص بناء على الوضع الجديد الذي اخترعوه . فتصور الهنود من المسلمين وعبدة الاصنام انها ملوثة بدهن الخنزير او شحم البقر فتناقلت الالسنة ذلك الخبر فقامت على تصديقه كل الشعوب والاجيال لان احد هذين الحيوانين محرم ديناً والآخر داعٍ للاجتناب والنفرة . وكان العساكر قد اجبرتهم قوادم على استخدام تلك الرصاصات فاستفتوا برأيهم وعلماءهم في جواز استعمالها فمتعوم متعاً أكيداً فاصبح ذلك سبباً للهياج وتصور الهنود ان ذلك منبئ على اهانة دينية وان انكلترا تريد خرق قواعدم وادبانهم

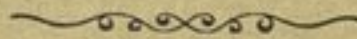
وقرأنا في كتاب آخر خبر طغيان النوج ( الآلاي ) التاسع عشر من مشاة العساكر المأمورين بحراسة بلدة ( رامبور ) وحدودها وانهم اعلنوا العصيان على انكلترة واحرقوا تلغرافخانه ( بادكبور ) وشرعوا بالفتك والنهب في قراها وضواحيها واغاروا على الانكليز يخربون دورهم ويحرقون زرورهم . ومن الحوادث التي مهدت سبيل الثورة وكانت مصدراً لها ان بعض الاهداند كانوا يتلبسون بلباس البراهمة والدرابيش ويتجولون في اطراف المدن الهندية يتدنون بالافرنجيين ساعين في ايقاد نار الطغيان بانواع الدسائس والمكابد ويتسمون للاهالي رُغماً على هيئة خاصة تشبه النبوة الطري بحيث اذا رأتها الاهالي اثرت فيهم فنظفهم من رؤيتها علامات البغضاء .

والصغينة على وجوههم وجباههم  
 وكانت الافواج الهندية عند حضورهم في ساحة الاستعراض للحركات النظامية  
 تصل الى بد رجل منهم واحدة من النيولوفر الحفقي الطبيعي او الرغبة المشابه لها  
 بواظن خفية لا يدري النطن المدرب من اي شخص حصل وفي اي ساعة وصل فينظر  
 هذا العسكري ويتأنيق فيه متأملاً ثم يأخذ رقيقه الذي يجانبه حتى تتناقله افراد  
 العساكر واحداً بعد واحد ويدور الرغبة من رديف الى رديف فيحدث تغير كلي  
 في الوانهم وتبدو من ملامحهم امارات العداوة

ان العيون لتبدي في نواظرها \* ما في القلوب من البغضاء والاحن

اما اهل تلك العلامة الوخيمة المترتبة على رؤية النيولوفر فانتا لم تنف على حقيقته  
 الى الآن مع اقامتنا بين قبائل الهند وشعوبها . وكانت الاخبار الموحشة المتواترة  
 تذرنا ونجعلنا في خوف ونوحس عميق نحكم بسفرنا من دهلي الى اوطاننا بالعجلة النامة  
 وان لا نتوقف في الهند اكثر من ثمانية او تسعة ايام . وكنا في بعض معاقلنا نتجاذب  
 اهداب المشاورة في الحوادث الداخلية فتكلم عن السلطنة الكاملة التي حصلت  
 لانكثرت في هذه الاوقات في الهند وعن الضعف البالغ منهاه والطاعة التي لازمت  
 الهنود فانهم لا يقدرون على ارتكاب اقل خلاف . وكنا نحمل التفاصيل الواردة البنا  
 من الدلائل على الاغراق . واخر حذرنا خطر بنامي انهم يريدون ابجاشنا وهم يولنا  
 بتلك الخرافات والباطل لتترك ضباعنا وعقارنا لهم شمن نجس فيتمكوا من مصادم  
 الفاسد . والذي اكد عقيدتي هذه ان صهري ( ويايام هود ) الحائز درجة النيابة في  
 النوج ( النرفة او الآلامى ) المهندس الانكليزي كان من المعترفين بخرقة الدلائل  
 على ان هذا الشاب الشديد الشكينة كان يلاقينا في مزرعتنا التي بخارج دهلي  
 اغلب الليالي ويتكلم على دقائق سياسة انكثرت وانقان قوانينها العسكرية ثم يهرن  
 على تكذيب الاخبار المنقولة فيهدأ روعنا ونطمئن خواطرنا

وكان يقول في غشون كلامه اتفق في كثير من الحروب ان اربعة من انفار  
 الانكليز حكموا على اربعة قبائل هندية وقادوم كما بقود الراعي قطع الغنم اذا شاء  
 اوردها المرعى واذا شاء اصدرها



## الفصل الثاني

### توارد الخواطر

في بعض الليالي التي كان يتخلف فيها ويليام عن القدوم الينا لقبامو على حراسة قلعة ( سينفور ) كانت حالتنا برئ لها من الهواجس والخاوف وكانت تجسم عندي الصور الخيالية في هيات مهيبه وقوالب مختلفة وتترأى لي اشكال متنوعة في البقطة والنوم وكان ملها غيبياً بلهني باختلال امرنا وان نبيع املاكنا ونخرج من الهند لانني كنت اتوسم في امورنا علائم الادبار وانه قد آذنت شمس اقبالنا بالافول وكنت طوراً اكلف زوجي ان يبيع ممتلكاتنا بقبعة زهيدة او يتركها سدئ ويقع بالنفود الحاضرة لتركب باخرة وتفر الى لوندرة . فيا لله وهذه الاحوال والاهوال

اما زوجي فكان يتعجب من وحشتي وينسبني الى الجنون ويقول « اني لا ابرح مكاني هذا حتى اقتطف ثمار مزرعتي ويجمع املي وتربح تجارتي » ولا انسب زوجي الى الشن في احشاد الاموال وطول الامل فان مزرعتنا كانت جسيمة المنافع عامرة نفعنا بمبالغ خطيرة في كل سنة لا نظير لها في ضواحي ( كلكونا واله اباد ) معدودة في الدرجة الاولى وقد قومت بقبعة مائة وثلاثة وعشرين الف تومان وكانت مظلمة لانظار الملائكين . وعقبه زوجي اننا لو بقينا في الهند ثلاث سنين اخرى ازدادت ثروتنا الحاضرة ازدياداً كبيراً وبلغت مائتي الف تومان

ومن اللوازم الضرورية القانونية ان نهب لبيتنا آلن مالا كافياً من الجهاز عند ارسالها الى دار زوجها والقصد الوحيد من المكث في الهند تحصيل مال بمادل عشرين الف ليرة وهذا هو المبلغ الذي علينا تادينه لآن عند تجهيزها . وطالما كنت اسعى في تنبيه زوجي الى احقاد متوقفة في القلوب سترها الرماد الظاهري وان الرعايا الذين يسكنون اطراف مزرعتنا يعادوننا جداً ويتصدون وقوع حادثة قريبة ليهدموا بيتنا وبذهبوا بطارقنا وتلبدنا لكده ما تنبه به لاحتطائي ومطالعاتي ابداً كما في اضرب في حديد بارد وما الفائدة اذا حل القضا واتسع الحرق . وكنا نسلك طريق الحفاوة في المعاملة مع الرعايا وتراعيهم اكثر من الزرع في اسعاف تمنياتهم



وم يبدون لنا ظاهراً حسناً ولكنهم لا ينصرفون عن عداوتهم الراضحة في قلوبهم  
وبعضهم التدم

وفي ليلة من هذه الليالي جاءنا واحدٌ من معارف الدلالين وأنا بمبلغ جسيم  
لشراء المزرعة وقطع معاملتها الممهودة فشفخ زوجي بانفد كبيراً وأعرض عن بيعها  
للتحقيق آمالو يجمع الثروة الخيالية فاهل امر بيعها وأذن بالذهاب الى انكثرا . فارجت  
تجارته حتى بلغنا ما بلغ واحاطت بنا التوائب من كل جانب ودارت علينا الدوائر  
فتركني كما ترى وحيدة فريدة . رأي لي الشامت وبكي لي العدو وطرحني في ورطة  
النعاسة لا اقدر على شيء . بعد ما كنت غريقة في بحور النعمة واليسار . قتل زوجي  
وصهري وبنتي وابني ونقد زادي وباد قومي وخلت يدي ونحطت اركان حياتي  
واشعلت مصايح المصاعب في رأسي . آه الآن قد ندمتُ حيث لا تنفع ندامتي  
ان الالهام الغيبي طالما نصحني وانهي الي اخبار ابتلائي لكنني ما انعطت حتى  
أصابني ما اصاب . وفي اليوم الذي اعرض زوجي فيه عن بيع المزرعة خرجت معه  
وبنتي وصهري وابني « ويل » للنزء على شاطئ بهرجنا وكنا نتذاكر في مساع  
اراد اجراءها بعض اعظم القسوس لتحويل الهند الى النصرانية فيجمع القلوب ويوحدهم  
النيات وان هذا الشخص تنرد برأ به الضعيف ويعتقد انه لا بد من اجبار الهند على  
تغيير المملك واتخاذ هذه الطريقة كرهوها واحبوها . واخذت مكالمتنا هذه طرفاً من  
التحقيق الدقيق وتثبتت بناسيل الكلام في سرد المضار المتطبقة على هذا النصد  
والمنافع المشتملة عليه اذا تم فوقعت بين آراء اربعة

وانا قلت بين آراء اربعة واخرجت ابني من اغراط هذا السلك لتقصان  
شعوره وعدم استغناؤه الدخيل في حوزة المكاملة . كنا مشتغلين بالبحث والجهد  
و ( ويل ) يلعب تارة يا محو سريعا ويسابقنا في المشي واخرى يرجع مهرولا  
آخذاً يدي او يند اخنو حتى وصلنا والحالة هذه الى طريق ضيق قد تغيبت الاشجار  
فيه والتمت فاعوج الطريق متايلاً ورأينا ثمت دروباً هندياً قد توسد في عرض  
الطريق وسد المسلك على المارة وكان ويل كما قلت امامنا مشتغلاً باللهو واللعب  
باقتناء . طنواينو فما وصل ذلك المقام الا ورجع الفهري مرتاعاً صائماً وكانت آلتن  
مع ويليام بتقدماننا في المشي وانا مع زوجي نمشي على عشر خطوات منها فلما عابن

وبليام وحشة وبل وفرعه من مشاهدة الدرويش دنا هو من الدرويش وهذه  
قائلاً له « قم وانفع الطريق » فامتدح الدرويش ابدًا فامتشاط وبليام وقتئذ  
غضباً وكان معه اربعة عساكر فقال لهم ( خذوا هذا الكلب والتوه في النهر ) فنقدموا  
بجمعهم واخذوا برجلي الدرويش ويديه وحملوه ليطرحوه في ( نهر جتنا ) عملاً بامر  
رئيسهم فاسرعت لاسمهم فادركتهم قبل فوات الفرصة ومنعتهم من التاثير في النهر  
ثم اخرجت ( روية ) من جيبي واعطيتها لوبل فذهب بها الى الدرويش من غير  
وحشة ووضعها في معاذة فميو وهو نائم ثم رجع

فأخذ الدرويش الروية وتحرك عن مقامه بهزيد الوقار وفتح الطريق . واما  
وبليام وآلن فلما جاؤا ذلك الموضع والدرويش مضطجع بجنبه نظر اليها نظره رجاء  
وبينين وقال « ستفتح طرق الهدى وتخرج من ضيقها الحالي وستظهر مسالكها الواجبة  
من رجس وجودكم » ولما مرّ زوجي نظرا اليه محملاً وقال ( سيغلب عباد الله وأولو  
الحق على الكفرة الفجرة ) ولما دنوت منه مع طفلي واجهه وبل بملاحق التلهف والتعسر  
وقال ( ادبت فديتك ايها الطفل المحبوب لكنهما لا تدفع النضاء المنوم )

فأثر تقرير الدرويش في قلبي تأثيراً عظيماً ولما رجعنا نقلت ما سمعته الى  
زوجي ووبليام يسمع فقال وهو يضحك بذي الدراووش كثيرًا من امثال تلك الخزعبلات  
والادعاءات الباطلة . وشنع قوله بقصة من قصص اولئك الخراصين المحمولة على  
الاغراق واكاذيبهم البعيدة عن التصديق فتبعته في الضحك وصدقته قوله ان لا اغترب  
بترهات الدراووش لكن ازدادت اهوالي واوهامي السابقة بعد ذلك

### الفصل الثالث

#### ❖ الضيافة ❖

وفي ليلة من ليالي هذا الاسبوع كان زوجي مدعوًا في بيت واحد من ضباط  
النظام فذهب تلك الليلة الى الضيافة في الساعة المعينة وتأخر عن الرجوع في  
الوقت المعين ومضت تلك ساعات من نصف الليل ولم يعد فاستوحشت كثيرًا

وكان خوفاً يومئذٍ من طائفة ( ثوك ) الذين يخشون في المكامن ليلاً وبأخذون من يحدونهم مفردين ويختونهم بحسبون ذلك فرضاً دينياً يتوقعون عليه للثواب . وكان مجتهدهم عند جسر ( ميرته ) ولا بد لبعلي من ان يجناز ذلك الجسر في رجوعه وما رلت اعاني الوسوس والاهام حتى صممت على ارسال بعض خدامنا المسلمين ليكونوا في خنارتو وفيما انا على هذا العزم واذا يخفق النعال وصهيل الخيل طرفاً باب سمعي فلم تمض برهة وجيزة الا ووصل زوجي ومعه عشرة من فرسان الاهدان وضابط نظامي فلما رايتي مسلوحة اللون باكية ما اتي عن العلة فاطهرت له وحشيتي من ابطائو فمازحتني حتى انتثارت لوعة كربي وطالت مكالمتنا وعاه الفرسان بسرعة لضيق الوقت . وما جروا ريثما يأخذون انعاماً في ازاء خدمتهم هذه ولما نهبت لهذا الامر امرت ناظر البيت ان يعطيني لهم شيئاً برسم الانعام فقال انهم ذهبوا وما صبروا

فطلعت عليهم من نافذة من نوافذ البيت فرأيتهم يقولون لرئيسهم عند الذهاب اما ترى عدم اعناء هذا الشخص بنا . اما ترى ايمتال حنوقنا عند اهالي انكالتو . اما ترى كيف اطلقوا ايدي الجور والاستبداد في اموالنا واتسنا بقلوب مطيشة وخواطر مستكنة . الى كم تفجر العسف وندوق الهوان من ابدي الافرنجيين والى م نرسف في قيود اللذل وحنام نسام العذاب . قد ازدادت صدماتنا الواردة من قبيلهم فسنكافئهم ونستأصل شأفهم ان شاء الله

ومع ذلك فقد كانت مدينة دهلي وضواحيها ومزارعها مأبونة امور والزراعة محنوظة لا يتخللها شيء من الخلال وكما نجد الناس مشغولين بمكاسيمهم ومعاملاتهم بحيث لم يكن يشاهد في دهلي و ( آكه ) و ( اكرا باد ) وسائر البلاد الواقعة بجانب الشارع الاعظم الا الامن التام والسلم السائد والسكينة الشاملة على ان امارات الهياج كانت ظاهرة على جماء التلاحين وفي ثنايا لحظاتهم . فاليك الاهالي ان خرفوا حجاب النسرة وابدوا شكاياتهم علانية وكانت العساكر الهندية بعد انمام حركاتهم النظامية عند خروجهم الى اطراف دهلي يتحسسون البيوت والمساكن المتعلقة بالانكلاز كمنهم ينددون ضالهم . وبعد مضي ايام فلانل جاءتنا انباء الثورة تباةاً من ( لوكوف ) ان الهنود يتأهبون للثورة ومن ( اوده ) ان طائفة ( ثوك ) المتقدم

ذكرها خرجوا من الزوايا والمكامن غير هائمين المولس والحراس واشتغلوا بالنمك  
والخنق الى غير ذلك من النضائع الشنيعة وان قبيلتي ( كاندو وبنوا ) تسرقان  
الاطفال ونعدماها بصدقات مختلفة وان المهرج يتوسع شيئاً فشيئاً وبلغنا اخيراً ان  
هذه الطائفة سرقت في ناحية ( جيبود ) عدة اطفال من اشرف العائلات الانكليزية  
وذبحتها كما تذبح الجزر وان تجري احتفالات عظيمة وتظاهرات حسية في الجوامع  
والبيع وتعتقد مجالس غاصة بصنوف القبائل في الكنائس والمساجد يدعون الله تعالى  
ويعتقلون اليه ان يبني حكومة انكلترا ويتلون الخطب المهيجة في اصمحلها واستقرار  
سلطنة الهند في العائلة الكوركانية

وكان من اعتقاد البراهمة ان دولة الانكليز لا يتمكن من اخضاع الهند والغلب  
عليها اكثر من مائة سنة فعلى ذلك يجب ان تنضم عري استيلائها في هذه الاوقات لانها  
قد استولت على الهند سنة ( ١٧٥٧ ) لغاية الآن وهي سنة ( ١٨٥٧ ) وقد تم القرن  
المعهود وبلغ عدد سني تسلطهم المائة وسبيل صولتها بالضعف واستيلائها بالاستئصال  
ومع تواتر الاخبار الموحشة كانت اكثاف دهلي غارقة في بحور الاطمئنان

ختمنا شهر ابريل بسعادة وهناء وشرعنا باقامة وليمة عرس آكن ووبليام للقيام  
بما يتمناه قلبي لا بل كما تمنى كل ام رؤوفة حنونة لبنتها وقلنة كبدها وتوجه املي  
للحصول على ساعة زواجها وانا لا اترك دقيقة على حسب ما تكفه المحبة القلبية من  
الاحساسات العائلية فجعلنا اليوم الحادي عشر من هذا الشهر ميعاداً لابتداء العرس  
ودعونا معارف الخواتين واكار التيبات وعفائل المخدرات وعظماء النواد والضباط  
العسكرية وفرقنا بطاقات الدعوة واخذنا في التأهيات اللاتقة  
آه واسفي على خسران امالي وخيبة آمالي وانكسار قلبي الذي ملأه الزمان املآ  
وما بسط له ساعداً ولا فصح له باباً



## الفصل الرابع

### ❖ اقامة العرس ❖

جاء اليوم المعين واجتمعت المدعووات والخواتين واحتفل الرجال ومدت  
الولائم واعدت المشروبات واخذنا في دواعي السرور والننزة مع اترابها ربات  
الحسن والدلال وويليام آخذ بجماع الصحبة مع اقرانه بطارحهم الاحاديث والانغام  
الموسيقية تجدد نشاط قلوبنا بضرها المطرب

وما زلنا على هذه الحال والقلوب فرحة والخواطر منبسطة واذا بمحدث بغتي نفص  
عشنا الرغيد وهي ان الذهباشي ( الاونباشي ) سبلي في فوج ويليام فتح باب الغرفة  
التي كنا فيها وهي حافلة بالرجال والنساء فدخلها والبغنة ظاهرة على وجهه حتى وقف  
امام ويليام وناجاه اكثر من نصف ساعة . فمكالمته السريعة مع عدم استئذنانا ودخوله  
في مجيئنا هذه الجسارة فضلاً عن محتو الموحشة المصفرة وصوته المتزلزل وحديثه  
الطويل مع رئيسه وارنماش بد اننا الكلام وتلجج لسانه اوقعنا كل ذلك في دهشة  
وحال بيننا وبين الطعام ونجهمنا حول سبلي وويليام ونحن نستعلمها الخبر وهما لا  
يعبان بنا . ولما تمت اجوبته اذن له بالذهاب وقال جهاراً بصوت عال سمعه كل  
الاضيف والخدم « اوعز الي فرقتي العسكرية بان تكون مسلحة تنأهب للحركة  
ربنا اصل »

وكنا كلما نلح عليه في كشف المسئلة ونستقبره عن سبب مجيئ سبلي ولما أمر  
باحضار فرقتي والى ابن يذهب بها زاد اصراراً على اخفاء الامر وتقليل الجواب  
وظل ساكناً باهتاً لا ينوه بينت شفة . فلما تجاوز الحاحنا حد الطاقة اجابنا بهذه العجالة  
« امرني الجنرال كراوان اعجل بايصال فرقتي اليه بعد ساعة واحدة » هذا ما اجابنا  
به ويليام تسكيناً لوحشتنا وقلقتنا وهل يخفى الامر وقد ظهرت على جبين ويليام عدول  
الاضطراب بشاهد فيها علامات بثبت للرأي انه يداهنتنا وان ما يظهره مخالف لما  
يصره في قلبه ورب سكوت ابلغ من بيان

فاكبت آلن على ويليام بجوامعها وقتئذ تلتبس منه بيان الحقيفة وايضاح العلة

الداعية لذهابيه وهو مع ذلك لا يتكلم ابداً فامضت على تلك الحالة هنيهة وإذا بواحد من ملازمينا دخل الغرفة وقال لويليام « الفرس حاضر والفرقة مستعدة تنتظر وصولكم » ولما قرع هذا الخبر باب اذنه قام مبعجلاً واقلمت يده من يد عروسه آلن وخرج من غير ان يودع حضار المجلس او يسلمهم بكلام . ثم نسم صهوة جواده وقصد سمت دهلي وما كانت عجلته هذه الاً للتملص من ايدي النسوان والحاحن في كشف السرّ فما بعد عنا بقدر غلوة الاً ورجع الفهري عن طريق البساتين فوقف خلف الجدران وربط فرسه بشجرة وجاء مختفياً بحجر البيت وأشار الى البواب وهو من معتمدي خدامنا ان يحضر لديه زوجي باي تدبير يعلمه ليوعز اليه بعض المطالب المغنية التي لا بد من اعلامها

ذهب وويليام ونحن حيارى والضيوف مجبورون لتناول قليل من الغذاء فجلسنا على المائدة واعددنا النوس للاكل ولكن ابن الاشتهاء . فلم يكن كرجع النوس او لمع القبس حتى دخل بوابنا وليس في وجهه شيء من مظاهر الاضطراب فتقرب من زوجي ووقف قبائله وناجاه قليلاً فقام زوجي من غير تأمل وخرج واشتغلنا بالغذاء وكان على المائدة رجل من ضباط النظام اراد تطيب نوسنا بشيء من اطلاعاته وابناسنا بملاطفات تجلو صدأ قلوبنا فقال « لا اهمية لذهاب وويليام وقد اوحشكم من غير سبب واملي وطيد بانة سيعود ومن المعلوم ان كل قائد كبير يريد اظهار قدرته في الامور العسكرية وتنفيذ اوامره في حق ضباطه واجزائه واني على يقين ان وويليام حضر مجلس عرسه بدون اجازة من الجنرال كراو فاراد باحضاره تبييه على هذا وقد جرت على ذلك عادات اعظم القواد وتعودوها في اقامة ناموسهم السياسي »

فما طابت نوسنا على هاتو الصحة المشوبة بالملاحظات الزمانية وصرنا نتعلل بالطعام والوحشة باقية والاهام الباطلة تتفاطر على مخيلتي كنتفاطر الامطار . مضت خمس دقائق ونجاوزت العشر وضربت الساعة الربع والنصف وما رجعت زوجي لبيت شمري ابن توقف . وماذا حدث يا ترى ؟ ففخزرت للقيام عن المائدة مراراً لاجت عنه فمعتني ملاحظة الاضياف وجعلت امامي سداً سديداً مخافة ان يفعلوا في وحشة اكثر من الاول فجلست وانا انقلب على حجر الانتظار ولكن لم يطل الحال

حتى دخل زوجي وهو مرتعش اليد من غير اللون ففعد فوق كرسيه ونحن سكوت كان على رؤسنا الطير فاشار اليّ ان اذهبي بالخواتين الى الغرفة الاخرى ولكنني لم افهم هذه الاشارة الخفية لشدة الحيرة وغلبة الدهشة فظلمت باذنة وانبعثني النسوان وجلسن على كراسيهن المعدة هناك فغلب على معنانا سكوت عميق لا يسمع فيه الا طنين الذباب ولا يرى فيه الا البهوت والسكوت

ولما رأى زوجي اصرارهن على الجلوس اشار الى الخدعة بالخروج فما قدرت وقتئذ على تمالك نفسي فتمت من مجلبي واخذت بيدي وقلت « لقد تقطعت اكبادنا اليوم وكادت قلوبنا تنفطر بالله عليك اعلمنا بالواقعة هل حدثت مضار تجارية او خسارة مالية لشركاؤك المقيمين في كلكتونا ولندره ام حدثت حادثة اخرى لا يبتنى ريقها فاشرح لنا بعض ما اطلمت عليه لتعلمين قلوبنا » فاجابني يا حبيبا لو وصلي خير فناء ثروتي ومكانتي باسرها ثم توجه الى النسوان وقال بنهاية الادب « ايها الكريمات الخبيرات اني انتمى خروجكن من الغرفة برهة قليلة فان لي مطالب مخصوصة مع الرجال اريد الاختلاء بهم للغوص فيها وحضوركن سبب لاختلال الحواس وارتباك الاراء على انكن ستطلعن على السر في عجالة الحال فاخرجن من غير تأخير » فازدادت وحشتنا ولحقتنا اضطراب عظيم من سماع هذا الكلام ولم يؤثر سؤال زوجي فيهن وبقين على كراسيهن كما نهن اخشاب مسندة او صور منقوشة على الجدران ونحزرت للنيلام فما امكنتي ولما شاهد زوجي هول هذا المطلع قال « اني اردت بتولي صلاحاً لحالكن وقد ادبت ما عندي من النصيحة ولما اجمعتن عن اطاعتي فاليكن البيان : ان نيران العصيان التي شبت اولاً في مبرهنة ما لبثت ان توقدت واتسعمت حتى امتدت الى سائر الانحاء وذلك ان العساكر المقيمين في مبرهنة اشروعوا عوامل الطغيان وقتلوا ضباطهم وقوادم كافة واستولوا على الانكيز واصطلت بينهم نيران الحرب فاطلقوا في ميادين الختوف اعنة صوارم السيوف وقد تحركوا الآن الى دهلي واراد الجنرال كراو مقابلتهم وارسل الى ويليام ليجزر جنده للملافة العصاة وقد صرح لي ويليام بهذا على حدة لتلاً بتوحش الحاضرون وينقص عيشهم لاسيما عروسه آلن وذلك لصفاء سريره ودمائة اخلاقه فانه قصد دهلي على مرأى منكم ثم رجع اليّ واسرّ اليّ ما بينته لكم »

## الفصل الخامس

### \* انكشاف السر \*

فلما برح الخناء وانكشف اللثام عن وجه الحقيقة بقيت الابدان جامدة واصفرت الوجوه وجنت الافواه فمضت والحالة هذه بضع دقائق ثم انتبهنا واجتمعنا رجالاً ونساء حول زوجي وجعلنا كرسيه مركزاً لدائرتنا وشرعنا نسأله عن العلة الداعية للثورة . اما آلن بنتي فقد كانت مقبلة الى الجدار وقد انحدرت لآلى دموعها على وجناتها باسطة يديها نحو السماء بكل خشوع وابتهاال تتضرع الى الله ان يحفظ زوجها من كل شر وسوء فقصدت نسائتها بكلام رقيق لتسكين روعها واذا بنتانين من رصفائهما اللتين حضرتا في هذا المجلس تعلقنا بذلي وهما تكيان باعلى صوتها وطلقت الاضياف بهرجون وارتمعت الضوضاء من دارنا واختلط البعض ببعض . والرجال الذين كان من حقوقهم ان يجتمعوا هناك للنظر في الخلاص من هذه الداهية الدهاء وقعدوا في هرج عظيم يعجز عن وصفه نطاق بياني لايعبأون بزوجاتهم واخواتهم وبناتهم فياها من بائقة اذهلت الحليمة عن الحليل . واسوء مجتئنا ان دارنا هذه واقعة في شارع كبير ينتهي الى مبرمتة والظغاة اذا ارادوا الدخول في دهلي لايد من ان يعبروا هذا الطريق ونحن سنكون عرضة لسهام البلايا قبل الآخرين . وكان ( كران ) قسيسنا مشغولاً وقتئذ بالصلاة بجاش ثابت من غير ان يندهش من قلق ذلك اليوم العصيب ولما فرغ من تقديم الفرائض المذهبية امر النساء بالخروج من الغرفة والرجال بالاجتماع المشاورة فتقدمت سائر النساء واتبعني في الخروج فترلنا قاعة في الدار ونحن نتهادى نتهادى الوهلان واذا بها قد اكتظت بعدد غفير من ملازمينا وخدامنا الهنديين . ولما رأوني ثارت بهم الحمية فاقبلوا اليّ مظهرين سلامة نياتهم فينا والنسوا منا تسليحهم بالآلات الحربية للمدافعة . فما اجبتهم بحجاب ودعوت ابني ويل وبعد ما ضمتته الى صدري وقبلته مراراً رفعتة فوق يدي في مشهد الجمع فما شاهدوا هذا العمل مني الا ورقت قلوبهم واكدوا لي الوفاء



هل ترى يحبون ابني من صميم القلب ؟ ام هم يريدون بالتظاهر بتلك  
 العناوين ان يفوزوا بمناصدم ويتسلحوا بادوات الحرب لوقاية نفوسهم . نعم انهم  
 يحبون ابني من صميم قلوبهم لاننا كنا نتفقد لاجل احوال المصابين بالفقر ونكسي  
 البنامى والبنيات وزاعي مرضى الهنود بارسال الدواء والغذاء . وتتصدق بصدقات  
 جسيمة ليكون هذا الطفل محفوظاً من الآفات . وكان قد اشتهر في قاطبة المزارع  
 عند الفقراء وابناء السبيل بالجود والسخاء ولذلك دخلت محبته في قلوبهم وهذا  
 هو الدليل البين لحبهم اياه ( ومن وجد الاحسان قيلاً قيلاً )

وخلاصة القول ان مظاهرات خدامنا تركتنا في اطمئنان وكنت اقول في  
 نفسي ان ثورة العساكر لا تستلزم ثورة الرعايا وان طغيانهم امر خاص لا يهم الملة  
 وهي راغبة في حكومة انكليزية ماثلة اليها وقد اتت لادامتها انقياداً تاماً وستنظني و  
 نيران الهياج والشغب بمظاهرة الرعايا ومعاونتها وستعود شرائط الامنية ورسوم الرفاه  
 قريباً في اقطار الهند وكنافها . نسيت بهاتو الاوهام وباليتمها دامت لحظة  
 اخرى لاني لما توسمت هذا المجمع الكبير في ساحة الدار واحداً بعد واحد ما وجدت  
 فيهم رجلاً من رعايانا لانهم كانوا من ملازمينا وخدامنا المخصوصين اما الرعايا فقد  
 تباعدوا عنا وغلب على حدسي انهم اتفقوا حينئذ مع العصاة وعاهدوم في باطن الامر  
 وهم يريدون ان يتلافوا ما كابده في هذه السنين من الشقاء . وكان ظني معقولاً  
 لانه مع الحفاوة والاشفاق اللذين كنا نبذلها لهم وللهنود كافة كانوا لا يتفكرون على  
 كظم غيظهم وكنمان نياتهم الفاسدة لتباين المشرب ونضارب المذهب . وطالما التي  
 القبض عليهم بوليس الاتكليس وجسمهم وطردهم غير انهم كانوا لا يتصرفون عن  
 مجاهرتهم بالعدوان وتدميرهم مع تلك التهديدات . وكنا نرى نار الخصومة ملتفة منذ  
 اعوام واعصار من اول توطئنا الهند واشتغالنا فيها بعمارة الاراضي والزراعة وقد عبرت  
 الدهور وكثرت العصور وهم يشنون تحت احوال العصية ينتظرون النور بآمالهم  
 واراز ما تكنه صدورهم وتضمين قلوبهم في حق الافرنجيين . فاشتغل وقتئذ ضرام  
 حجر كنا نشاهد ومبضه من خلل رماد العداوة والبغضاء .

هذه حقيقه آرائي الاجمالية واذا كان الامر كذلك فقد وقعنا في مهاري المهالك  
 ولنتنظر وقوع التكببات والغارات والنيل والنهب . فرمخت الخيالات في قلبي وكنت

مترددة في تصديق رأبي وتكذيبه وإذا بزوجي خرج من الغرفة فانهالت في اثر  
الرجال من المجلس بعد مؤامرات ومذاكرات فعلا من خدامنا صوت « فلنحي  
انكثرة ولنهلك الثقة الباغية وزمرة العصاة شرفونا بالاسلحة لنكون معكم بهيئتنا  
الاجتماعية في دفع النافرين وردعهم وان لكم في ذمتنا حقوق نعم تمنعنا بها منذ  
زمن طويل هي كالاتفاق في اعناقنا يجب علينا القيام بابناء شرائطها اقلها تداول  
البيض الصناح . وبذل نفائس الارواح » ومع الرفاهية النامة الحاصلة للانكباب  
في الهند كانوا قد اعدوا في مزارعهم مخازن الاسلحة على سبيل الاحتياط لدفع المضار  
التي كانوا يخافونها من الوحوش والسباع السارحة في الآجام والغابات التي كثيرا  
ما كانت تخرج منها وتجول في اطراف المزارع فتدخل البيوت احيانا وتخطف  
الصبيان وكانت تلحق اضرارها بالاھالي وربما قتلنا عدة منها على سبيل الاتفاق وكنا  
لا نقدر على النوم في اغلب الليالي من عواء الذئاب وصباح الثعالب وحلجة  
السباع والنمور

ففتحنا باب ذلك المخزن حيث وجدنا ما خرجنا منه خمسين بندقية وثلاثين مسدسا  
ووزعناها في الخدمة والضيوف ثم فتحنا صناديق الرصاص وقسمنا ما فيها فامضت  
ساعة من ذهاب ويليام الا وقد تقادوا اسلحتهم وتطاول سيوفهم ونهبوا للدفاع  
والمقاتلة فهبوا ناما بحيث لم ينقصنا شيء من الادوات النارية

## الفصل السادس

### ❖ الاتجاه الى الغرفة ❖

اما نحن النساء الاسيقات فقد كنا هياكل الجبن والخوف فاجنمنا في غرفة  
مرتفعة خوفا على انفسنا . واني لا انسى مدى عمري ذلك اليوم الذي كنا فيه  
في حالة باس وانقطاع كلي وما ظنك يجلس لابري فيه الا ذرف الدموع وخفقان  
القلوب . وكانت حسرتي تزداد حين تفكري في امر تزويج بنتي وينقطع قلبي اسفا لحالة  
هذه المسكينة . واسني على خسران آمالي . باترى ابة علة احدثت هذه التعاسة  
لي ولبنتي وبدلت الافراح بالاتراح . وكنت انظر نظرا التلهف الى رصنا في متبينة

ان هذا الاجتماع لن يسبح الدهر بمثلو مرة اخرى  
 ما اشبه حالنا بحال الاغنام التي يتدمها مسلمو الهند للفرسان في عبد الاضحي  
 من اعيادهم المليية وكنا نتظر اولئك النصايين ليدخلوا غرفتنا ويقتلونا وكانت  
 جدران الغرفة التي التجأنا اليها تكاد تشتعل من حمارة القبط وغلت مرارتنا في  
 احشائنا كغلي الحميم وضافت نفوسنا من تصادم هذا الهواء الخبيس وكدنا نهلك  
 في مععان الحرّ قبل وصول العدو . وكنت ارى بعض الخوانين المحترقات  
 قد اشرفن على الهلاك ترعد فرائصهن من الدهشة والبعض الآخر جاثيات على  
 ركبهن ناظرات في مستقبل الامور والبعض الآخر قد استولت عليهن الكآبة  
 وتناوبن طوارئ الخوف بحسين الجاهل سكارى وماهن بسكارى . ورأيت  
 النباتات نادبات على انفسهن بصغين الى الضوضاء في الخارج غارقات في لجم  
 الخيال وقد وجبت القلوب ونضبت العيون . واصفرت الالوان وارنجت الاركان

فمن مقلّة شرقت بالدموع ومن وجنة غرقت بالدماء

وسافرة من قناع الحياء ونابهة صبرها بالعراء

اما انا فكنت مع جماعة من النساء تجلد نوم اتنا لا نكترث بمثل تلك الفلاقل  
 ونسلي بعضنا بعضاً مع الوحشة التي اخذت مأخذها منا وكنت ضامة ابني وبل الى  
 صدري ضماً عجيباً استعد لدفع الشرعنة واجد في نفسي قوة ضرغام قوي يريد الهامة  
 عن شبلو واقول اذا دخل الاشرار غرفتنا وارادوا قتل ابني لاخذ بهاتين اليدين  
 الضميتين حلقومة اللطيف فاخنفته خفياً بريحه من الوقوع في ايدي تلك الجماعة

اما غرفتنا فكانت مظلة من الشرق على الطريق المؤدي من دهلي الى مرتبة  
 وكان خطة الابيض ظاهراً وقد احذقت به الاشجار من جانبيه وهو ممتد مع البصر  
 الى ان ينقطع . ويطل من الغرب على ابراج قلعة سليم غوري وسائر استحكامات  
 القلاع الواقعة هناك وعلى قمة الجسر الممدود فوق نهر الجمنا وقباب النصور الشاهقة  
 وعمارات السلاطين الكوركانية وما دُن المساجد العالية . ومن الشمال والجنوب  
 تطل على القرى والحدائق والترع والحنول والمروج والغياض النضر والغابات  
 المتكاثفة وغير ذلك من المناظر الطبيعية . والنساء اللواتي كن رابطات الجاش  
 قوبات القلوب اجنهن للنظر من نوافذ الغرفة الى الشرق وكنت فيهن فانفضت

ساعتان وما شاهدنا في تلك الضواحي ما يحدس وجه الادب او يحل بالنظام او يخالف القانون غير اننا نرى البريد ( البوسطة ) سائراً من دهلي الى ميرتهه بجعل وشاهدناه راجعاً من ذلك الخط ولما لاحظنا تردد البريد شرع وجيف قلوبنا بالانحطاط ونصورتنا الطاعة انهزموا في ميرتهه والبريد لا يتطع الطريق بالعجلة الا لتبليغ البشارة واعلام القواد بها . لان السردار الانكليزي الذي في ميرتهه من شجاعت الامراء الحربية واثار بساتيه وكنائيه مشهورة فلا يتأتى للاشرار مقاومتة . وخيل لنا انه سينال الظفر . وكاننا به قد اخمد نار الشعب . فإكان املنا هذا الا كشواظ تلاً وانطفأ لاننا سمعنا اثناء هذه المذاكرة صوت الابواق والطبول من طرف يهرجنا مع ان الريح كانت تمس على خلاف الجهة التي نحن فيها ولكن الصوت كان يقرب منا شيئاً فشيئاً ثم سمعنا ترثم الموسيقى العسكرية فما لبثت الحال على ذلك اكثر من ربع ساعة واذا بفرقة عظيمة من مشاة العساكر وفرسانها يفودها الجنرال كراو قادمة لاستقبال العدو ومعها بطريتان من المدافع والانغام الموسيقية امامهم تجدد قوتهم ونهيج احساساتهم ولما بلغوا محاذاة بيننا جددوا نشاطنا باصواتهم المرتفعة قائلين « فلتحي دولة انكلترة الغيبسة » وظلوا سائرين

ولما فرغ هذا الكلام الوطني المهيج باب آذاننا نزلنا من الغرفة بهزبد السرور على خلاف اوامرازواجنا واجتمعنا في ساحة الدار نسأل لم النور والظفر وتفاء لنا بملاقاتهم وحسنت ظنوننا في حقهم وقلنا هؤلاء العساكر في حالتهم هذه وان كانوا ما وصلوا تجاه الاعداء وما شرعوا بالمقابلة والمقاتلة لكن علامات النجاح تلوح على صفحات رايانهم ووجنات الويتهم . ثم اجتمعت الخدمة والسادة والعميد وهم اكثر من خمسين نفرًا وتراصوا امام الباب على طول الطريق بقلب جريء وخواطر قوي يتظرون خبر الغلبة والفتح وفيما نحن في ذلك الانتظار فاذا بغيار ساطع ملا عرض الافق وهو يقصدنا ويقرب منا فلما انصرح الامر وسكت الريح اسفر الغبار عن العساكر الانكليزية وهم تارة يستقبلون الاشرار بهيئة مجتمعة ويدفعونهم باطلاق المدافع واخرى ينهزمون لغلبتهم

والترق التي تحت قيادة الجنرال كراو عبارة عن الفرقة ٢٨ والفرقة ٥٤ والفرقة ٧٤ من مشاة العساكر الهندية مع عدة من الانكليز . ولما قابلت تلك العصابة الحافلة

العصاة ولاقتها في ميدان الحرب تركت الجنرال كراو وانضمت الى الوطنيين وبقي ذلك الفائد مع نفر قليل من خواص ضباطه واشتبك القتال بينه وبينهم وحى وطبس الحرب وما زال الجنرال يقاتلهم راجعاً الى دهلي بطور الكر والنز حتى اصبح على مقربة من دارنا وتوقف وكان هناك تل صغير اتخذته استحكاماً حربياً وشرع في مقاتلهم باطلاق المدافع فاستولت غيوم الدخان على خط تلك الحدود واسبلت على ارض التزل سناثر دموية . والشجاعة التي اظهرها الجنرال امام دارنا زادت الطين بلة وصارت علة لرحمتنا فهاجرت بنا دواعي الهنة لان الاشرار لما شاهدوا انسداد الطريق تحركوا نحو البمين فهلك منهم جمع كثير من قنابل المدافع التي اطلقت متواليه من ذروة التل لكنهم تركوا قتلام صرعى وقصدوا دارنا فالتجأنا وقتئذ الى الغرفة التي كنا فيها وارفعت الضوضاء وخشنت الاصوات وخرق دوي المدافع حجاب اذاننا ولا ضجيج التواتح واغربت الدنيا في اعيننا . ما الذي يصيبنا يا ترى . هل نجد وسيلة للفرار من هذه الورطة . هل يجوز التوقف هناك وتكون نفوسنا عرضة للقتل ونواميسنا هدفاً لسهام التنك والشهوات الباطلة . ام هل يجوز لنا الانتحار لنطش من الهلاك بالانتظار

وياحبذا لو كان ولبيام حاضراً هنا حيث قامت الحرب على ساق وقدم ليشاهد زوجته آكن . لبت شعري ابن هو . لماذا تاخرعنا في هذا الوقت . اظنه ما موراً بحراسة المهمات والذخائر الحربية ولو امكنه الخلاص لاستعمار اجنحة للوصول اليها والافكيف يصبر ويتركها في ليج الخطران هذا بعيد عن احساسانو . ولو فرضنا انه اعرض عنا فهلا يحضر للمحافظة على زوجته في هذا اليوم المهول . اما الرجال فاستعدوا للتزل والبنادق على اكتافهم والمسدسات في ايديهم ونهبوا للذنب عن شرفهم واعراضهم فبينما نحن في حالتنا هذه رأينا رجلاً هندياً يتحرق مضاب الثورة وبطاحها يلتمس دارنا فما زال يقف معاركها حتى دخل الدار وصاح ابن صاحب الدار فاروه زوجي فاخرج من كمو رسالة صغيرة دفعها اليو ورجع ففتحناها فقرأنا فيها ما يأتي « مادامت الطرق منسدة بسبب مقاتلة الجنرال كراو مع الطغاة فاغتنموا الفرصة وادخلوا المدينة من طريق الجسر ومتى دخلتم اعطوني بما منكم اما انا فلا يتسنى لي الهجي . اليكم الان لقيامي على حراسة الذخائر الحربية في مخزن الاسلحة وهذا هو

السبب الذي اوجب انقطاعي عنكم . اخذت هذه الاحرف وانا في غابة الشوش من جهاتكم . بلغوا العروس زوجتي العزيزة سلامي وقولوا لها نشددي وكوفي ثابتة الجاش معتمدة على الله والملافة قريبة واملي ان تكون حالتنا جيدة ان شاء الله «  
( ويليام هود )

فحل السرور في قلوبنا وقتياً وحصل لنا انشراح صدر واخذنا ن فكر في تعاطي اسباب الخلاص وانتهاز الفرصة وقد رأينا التأخير شديد الخطر ورفع عندئذ كران القسيس رأسه الى السماء وبسط يديه الى الله متضرعاً ثم قال « ايها الاخوان وايها الاخوات لا ملجأ لنا الا الله ولنلتجى اليه وهو الذي يحفظنا في كنف حمايته وحوزة حراسته تضرعوا اليه فانه لا خافض لما جمعه ولا مفرق لما جمعه » . فبسطت الابدني الى الله وخشعت الاصوات ولما اجبتنا دعوة كران عزمنا على الفرار . اما زوجي فانفرد برأيه يريد التوقف مؤملاً ان الاشرار اذا بلغوا اسوار المدينة يجدون ابوابها مغلقة واسباب الحصن والدفاع موجودة فينتفرون ابدي سباً ولا يمكنون في ميدان القتال وكان يقول لخدمنا المشمرين عن ساعد الدفاع ان الاشرار اذا قصدوا الدخول الى عارتنا فلا تمنعوم وانركوم وداري هذه فاني اريد رعاية مجروحهم . وحقبة القول ان قول زوجي كان ناشئاً عن الانصاف الا ان تلك الانسانية لاتنفع الآن وقد اضطربت نار الحرب ونطابت شعها . واخذ الجنرال امام دارنا استحكماً حريباً وانتطعت فيه الكباش وازهقت الارواح . فصار ذلك التصادم والتهاجم سبباً بان الاشرار انحدروا الى دارنا انحدار السيل الهامي واحاطوا بها من كل الجهات وهم يصيحون ويقولون « الآن نتقم من كفار الافرنج وفجار الانكليز الذين نسلطوا علينا وقتلهم جميعاً »

## الفصل السابع

### ﴿ الفرار والثورة ﴾

فالتفتنا حيث نبطحت سيول البلايا فاذا العلاج قد انحصر في الفرار ولكن

شاهدت زوجي مزرداً فسقطت على رجليه والتمست منه قائلة « قد استنحل الخطب  
 بالله عليك ان ترفق باولادك نجنا من هذه التهلكة التي ماجت فيها امواج المنايا وواقفني  
 على الفرار فقد انشقت اكبادنا خوفاً » فاثرت كلماتي فيه واخذنا في تدارك الفرار  
 واخذت انا مع بنتي شيئاً من النفود ومن الاحجار الكريمة ما كان اعلى قيمة واخف  
 وزناً وخرجنا من البيت ووجدنا هنا ثلاثة افراس مسرجة فركبناها وتوجنا نحو دهلي  
 بلانوان ولا اهل

قد يفكر قراء قصتي اذا وصلوا الى هنا في خدامنا الملحمين هل انتقلوا معنا  
 في السفر ام لا فاقول اننا ما وجدنا فيهم من يوفي بعهده الا رجلاً وامراًة وكان  
 ما ابدوه لنا من الود والولاء عبارة عن مكر وخديعة وتلبيق وصنعة . اما الرجل فاسمه  
 محمد التيلبان ( التيلبان الذي يقوم بخدمة النبل ويعلفه ) اخرج النبل من مربطه  
 ووضع المودج على ظهره وحمل عليه بعض الادوات واستوى فوقها وسار يتبع اثرنا .  
 اما المرأة وهي مريه ابني وبل ارضعته من الطنولية وربته في حجرها فضمت وبل الى  
 صدرها وتبعتنا اما زوجي والآن فكانا امامي بركضان النرس فاخذت وبل من  
 الهندية واوصيتها بالجلوس في مودج النبل واقعدته على حجري وكان فرسي جواد  
 الخفة فركضته حتى تبعتهما . هنا خريطة فرازنا وما ادراك ما الفرار واي يوم شديد  
 ابتلينا بولا بلى الله عبداً من عبيد

ولما وصلنا الى الجسر التفت ورأيت فوجدت دارنا قد لعبت بها النار وتناثرت  
 سفوفها ونصاعد الدخان فوقها فصحت عن غير اختيار فوقف حبتلدي زوجي وبنتي وعابنا  
 احتراق بيتنا الذي كان محلاً لتعيشنا وسعادتنا ومحطاً لرجال ثروتنا فترتبت على هذا  
 حسرانا واتخلعت قلوبنا من الحزن والاسف حيث صارت اموالنا نهباً منهوباً واعلاقنا  
 سلباً مسلوباً . كانت الساحات غاصة بالوف مؤلفة واخلاط الناس والعامه اكثر  
 من ان يحصى عددهم وقد اصطنعوا من طرفي الجسر فامضت على وصولنا برهة حتى  
 وصل اليها بعض الجرحى الذين فروا من مقابلة الاشرار وقالوا ان الجنرال كراو انهزم  
 انهزاماً رديماً وسيلحق بنا . ولما شاع هذا الخبر وتحققت هزيمة الجنرال تطاولت  
 الرقاب . واستاسدت الذئاب . فاظهر الهنود وقتئذ نتائج بغضائهم على السنتم البذيئة  
 وشرعوا يهددوننا بعبارات خشنه كما بها جمر قوي الاحراق . على ان سكنة الهند عموماً

وقطان دهلي خصوصاً في ايام السلم والصلح اناس كانوا ذوي طباع لينة وكتاف موطنة  
 جانحين الى الهدو والراحة اذا لاقوا واحداً منا خفضوا جناحهم ووقفوا في الطرق  
 احتراماً وتوقيراً يقابلونه بوجوه طليقة تنبئ عن كمال التجلة والتعظيم . اما في هذا الوقت  
 فصار هشيم تباينهم مخضراً وصارت اراينهم اسوداً وراذلهم شجعاناً رفعوا رايات الانتقام  
 والوية المكافأة . والاخادع المعوجة والفدود التي عراها الانحنا . منذ حقب وسنين  
 اصبحت اليوم مستقيمة كالرياح السهريبات زال عنها ذلك الاعوجاج الطارئ . وقد  
 حددوا انظارهم بنظرون البنا باعين خزر يميزون منا غيظاً وبلتهبون علينا عداوة . وظني  
 انه قد ارنست في الواح صدورهم كلمات منها قولهم « هه مملكة الهند التي ورثناها من  
 اسلافنا واحداً بعد واحد وكابراً بعد كبير واتم الاجانب قد دخلتم دارنا وملكنتم  
 حقونا وباي قانون اطلقتم ايدي الجور في املاكنا ومنعتونا من الانتفاع بخيرات  
 وطننا العزيز ورنعم في رياضها المخصبة وكرعتم من مياها العذبة . الى متى نسوموننا  
 الخسف والجور والى متى نفتحون علينا ابواب العسف والظلم . » ومجمل التول ان امارات  
 التعصب كانت بادية على وجوههم ظاهرة من اعينهم نعوذ بالله لو فرط منا في هذا الوقت  
 فعل فيه كبر وخيلاء فانا مقولون لا محالة

واستني على فوات الفرصة وباليثني ارتكبت فعلاً مخالفاً لميلهم ليقتلوني هنا حتى  
 لا أرى الذي رأيت من الدواهي السود فيما بعد . وخلاصة التول اننا عبرنا البحر حتى  
 وصلنا الى طريق المدينة الموسوم بطريق كلكوتا فوجدنا المسالك امتلأت بالجماهير  
 المحتشدة وضافت بجمع كثير لا يمكن حسابه فمعنا الازدحام من الدخول ووجدنا  
 ضيوفنا الذين فروا من دارنا متوقفين هنا في حالة يرثى لها ولما شاهدونا اشاروا الينا  
 بالترحل وقالوا « هؤلاء هم الاشرار الذين نسلط التعصب على قلوبهم وربوا ضغائنهم  
 في صدورهم على مر الدهور وهم لا يجدون فرصة اما الآن وقد صحوا من كرى الهوموم  
 واحبوا استعادة مجددم الدائر ووجدونا مقهورين اذلاً . فاذا ظنرنا بنا قتلونا لامحالة  
 وجعلونا عرضة للثلاث فلتنحرف عن انظارهم » فنزلنا عن الافراس وتوارينا في الجماعات  
 فبينما نحن ننتقم نيار الهياج واذا بالجلبة والضوضاء ارتفعتنا من ناحية المحلة التي  
 تسكنها حكومة الانكليز واختلطت اصوات الطغاة بهن الكلمات « علينا ان نقتل الانكليز  
 باسمهم » فظهر ان فرقة من العصاة هجموا على دار الحكومة وقصدوا نهب ما فيها وكان



النضاه قد امتلأ بالأصوات المهيبة وكادت ارواحنا تفارق الابدان من هول  
هذا المشهد الوخيم

ما انضت على ذلك دقيقة او دقيقتان واذا بواقعة فجيعة داهمتنا وذلك ان الاشرار  
حملوا على رجل من معارف انكلتزه كان واقفاً هناك على فرسه فجروه من مركبه بعد ان  
اكثروا عليه من الشتم والتفريع واقبلوا بهرعون اليه من كل جانب فاعتوروه بالسيف  
والعصي وضربوه ضرباً مبرحاً حتى فارق الحياة او كاد . ثم جروه والقوه في خندق مملوه  
بالوحم والكنافات ففضى نحيبه فشكرنا الله على ترك مراكبنا وعلى ان الشمس جحمت  
للغروب واخذت اشعتها المحزنة بالزوال . وكان الفيل امامنا يخطو كأنه اعمة الخباء  
بزهو يخرطومو ويختل الجعاعات ونحن نقطع الطريق من خلفه على غير وحشة وقد  
استوى محمد النيلبان على عنقه ودلى رجلوه الى الجانبيين وشد على رأسه عمامة خضراء  
ولذلك كان الاهالي لا يتعرضون له وهو يرماموناً من شرورهم وكنا اوصيناه ان  
يقصد منزل تاجر افرنجي كان من قدماء احبائنا ومحمد يمدو بالنبل ولا يلفت الينا  
ابداً لئلا يتطلع الاشرار علينا . وعزمت مراراً ان ادع ابني وبل على دابته ليستريح في  
المودج اما هو فعلق يديه الصغيرتين بعنقي وضم نفسه بنمسي وآل ان لا يفارقني ابداً .  
وكيف يسوغ لام حنونة ربت ابنها بالشنقة والحنون ان تفارق ولدها جبراً لا والله  
اني لا افارقه ولا افطع علاقتي اللطيفة من عنقي ما دمت في قيد الحياة . ولا اريد  
الخلاص من سلسلة محبتو . وما زلنا نجري مليحاً والثورة نشد حيناً بعد حين واذا بالهنود  
اشعلوا عتق مشاعل مزقوا بها جلاب الظلام فاعادت الليل كالنهار وارننا الوجوه السود  
والعمام البيض من الاهاند وكانت اصوات اللعن علينا مرتفعة من افواههم . حتى وصلنا  
الى قلعة سليم غوري فشهدنا فيها فرقة مدفعية قد ملأوا المدافع وبايديهم الذبالة  
المشعلة ينتظرون أمر رئيسهم لاطلاقها على التئة الباغية فما اتصلت الاشرار بهذه الفرقة  
الا وطرحوا اسلحتهم والقوا الذبالات في الخندق واخذوا المهات النارية واتخذوا مع أبناء  
وطنهم وصاروا يظفون المدافع في تلك الليلة الليلية على الانكلتزه فزاد هذا الاسف على  
اسننا وكانت المخاطر تتكاثر والاعداء تنفاطر . اما الاشرار فلما عابوا هذه المساعدة  
الوطنية صنفوا طرباً ووطنوا يمدحونهم فاوتقوا رابطة الولاء وانفقوا معهم

## الفصل الثامن

### ❖ في شوارع دهلي ❖

ونحن لم ندخل حتى الآن في المحلات الاصلية بل كنا نقطع الطريق في خارجها وياحبذا لو وجدنا الفيديان في السير واهتم في خرق الصفوف لانا لو دخلنا المحلات المحترمة امنا من مفاصلة الشدائد لان مدينة دهلي من اعظم مدن هندستان واهمها مكانا لانظير لها في حصانة حصارها وقد بنيت بالتعاليم المتفنة بمعارف المهندسين وجعلتها دولة انكثرت مركزا عظيما للعدد والسلاح والذخاير الحربية فهي امع المعامل وامتن الثامن وللغرباء ان يقتصوا فيها عند وقوع الثورات . تقدمنا بضع اقدام حتى قربنا من الدخول فصادف وصولنا مزدحما عظيما من الاوباش ورعاع الناس وقد عزموا على الخروج من المدينة بهيئة اجتماعية وانبلينا بهم كخزمة حشيش الثيب في البحر نبتاذها الامواج من مكان الى مكان فلا تلبث ان تفسد وتلاشي

كربشة في مهب الريح طائر لا تستقر على حال من الفلق

فارجعونا التهنري وقد صمت آذاننا من دوي المدافع والبنادق وكثرة الجلبة والاصياح الهويط بنا من الامام والخلف واليمين والشمال التي كادت تشق لولو الجيوب ومن سعادتنا اننا شاهدنا جمعا يدخل واخر يخرج بنوبة معينة فانصلنا بالداخلين فدخلنا المدينة معهم وما زلنا نمشي بهذه الحركة التسرية الى ان وقفنا بساحة ميدان امام مستودع البارود فوقف الجميع وعلنا ان الذين دخلنا معهم منهزمو عساكر انكثرت الذين كانوا تحت قيادة الجنرال كراو . انهزموا وفروا مذعورين فلم يكن الا كلعح البصر حتى وصل الجنرال المذكور وامر برفع الجسر خوفا من دخول عصاة ميرته ونعاضدهم على نقوية الهياج وانارتوا فاتم كلامه حتى اقبل الاشرار ونجاوزوا الجسر وهم يستنون كخيل الطراد فملكوا الجسر ونصرفوا في الدرب الكبير من مدينة دهلي فتعقنا عندنا تحقفا حتميا ان هؤلاء الاشرار القليلي الترحم والحياء اذا استولوا على هذه العاصمة القديمة والقاعدة العظيمة واقنقدروا على امتلاك الذخائر التي ادخرتها دولة انكثرت فيها فنحن مقتولون لا محالة

ولا اريد سرد تاريخ اسبيلاء الهنود على دهلي وايراد الحوادث التي اتفقت في اثناء ذلك اذ لا يسعني في هذه العجالة اسبيلاء كل الاخبار وهي خارجة عن موضوع قصتي وإنما قصدي الوحيد الاصلي بيان ما صادفته من الصعوبات التي وهنت النوى وذهبت بالعين والاثرمع اظهار ما جرى علي وعلى زوجي واولادي وعشيرتي من النائبات السود في هذه الطامة الكبرى والداهية الهائلة . ان انكلترة ليست مولدي ولا يمخندي ولا انا أحسب من هذه الملة التي فرنسوية وفرنسا مستقط رأسي لكنني تزوجت بانكلتري على ما قدرته التقادير واعطاني الله من هذا الازدواج اولاداً فانا انكلتريه بهذا الاعتبار . فلو افترضت دولة انكلترة بنامها في الهند وانتمت عن الكفر الارضية آثارها وصارت راياتها منكوسة وعساكرها مفتولة وتبدلت ثروتها بالفقر وسطوتها بالضعف فلا بهمني ذلك اذا ظلمت سعادتنا الماضية باقية وظل زوجي واولادي سالمين . والنساء اللواتي يطالعن قصتي ويطلعن على شرح غصتي وما قاسيته من المصائب يعلمن ان الموت احسن من حياة بهذه المرارة لان النساء ليس عندهن سعادة الذ من سلامة ازواجهن واولادهن . اما واسفاه فان عقيدة زوجي تخالفتي وتهدم بنيان مقاصدي فانه كان يقول « ان الرجل الذي يجب شرف وطنه ويود رعاية ناموسه ويلاحظ حماية دولته فعليه ان يقتل لجه التزال فيقتل او يقتل »

وخلاصة القول اننا جانبنا الازدحام وما زلنا نخبط في الظلماء على اثر الليل نؤم المنزل المنفصود حتى تجاوزنا دار الحكومة ثم اخذنا نقطع الطريق من خلف كنيسة ( سنت جمس ) الشهيرة وإنما اخترنا هذه المسافة البعيدة جذراً من العبور بمحاذاة ميدان اجتمعت فيه العساكر وما زلنا ندأب في السير حتى وقفنا امام بيت التاجر الذي قصدناه من اول حركتنا فوجدنا ابوابه مغلقة ونوافذ مسدودة وقد عرا تلك الدار العامة سكوت سائد وظلمة عميقة بحيث يخجل للرأي ان سكانها هاجروها منذ سنين وتركوها عرضة للحوادث . ففرع زوجي الباب فلم يجبه احد ثم قرعته ثانية بطرز خاص وما اجابنا احد . ليت شعري اين هذا الرفيق الشفيق والحبيب القديم . اين يا ترى هذا الذي عليه جل اتكالنا واعتمادنا . اهكذا تكون حقوق المودة والاخاء ان يتركنا في ورطة البلايا ويستترج بنفسه وما السبب الذي اوجب اغضائه ثم

ان كان كذلك فبأي حبيب يُعتمد و بأي عهد يُعتمد . فتزل النبلان عن ظهر النبل و طفق بدور حول الدار و يتأمل جدرانها فما وجد اثراً يستدل به على وجود انسان فيها . ولما رأى زوجي ذلك قرع الباب مرة ثالثة قرعاً عنيماً تزلزلت له اركانها فانفتحت على اثر ذلك نافذة من غرفة واخرجت عجوز رأسها منها وقالت « ان كنتم تريدون رب البيت فاعلموا انه نال سلاحه مع ابنائو واتباعه وذهب الى مجمع ضباط أنكلتر في برج الميعاد اما زوجاتو وبناته فارسلهن الى معلة ( بيكم شمرو ) وهي احدى مثيريات ونجيباتها ليكن تحت حمايتها » . ثم قالت بعد ذلك عجولوا في العبور من حوالي هذه الدار واقصدوا مأماً آخر ان الطغاة سيهجمون تلك الليلة عليها لاشتهارها بالثورة والغناء . ولما تم الكلام اغلقت النافذة وغابت عن اعيننا وتركنا حيارى في وسط الشارع

كان زوجي كما سبقت الاشارة يريد ان يتفق مع ابناء وطنه ويتخذ في الدفاع لكن حالة زوجته واولاده كانت تمنعه عن الاقدام بمقصوده وهل يتسنى لاحد ان يترك زوجته وابنه وبتته بين اظفار المنية في وسط الطريق في تلك الليلة الداجية و يذهب ولو كانت ركائبنا عندنا حينئذ لامكنا الوصول الى طريق كشمير واللحوق بعساكر الجنرال كراو اما الآن فلا تبلغ هذا المأمن الموهوم الا في ساعة ونصف لبعده المسافة هذا والصبح المرتفع يثبت لنا ان الغلبة للاشرار والخذلان للانكليز وكانت آكن من ساعة فرارنا من بيننا . ما تكلمت بكلمة لانها تنفكر في امر زوجها وتضي وقتها بذكره وكافي بها تركت جسمها لنا واودعت قلبها عند بيليام ولما رأيت ارتباك امرنا وتضارب رأينا صاحبت قائلة « لماذا تمكثون في المسالك بين المخاطر ان مخزن الاسلحة نقطة مهمة حصينة فعلينا ان نقصدها لنكون آمنين » هل يشنبه علي غرض بنتي كلاً اني اعرف انها انما تريد بذلك ان تتصل بزوجها وتكون مأمونة عنده حيث كان مأموراً بجوارسة المهمات الحربية في هذا المخزن ففرح زوجي وقتئذ وقال صدقت آكن في قولها واظن لها مصيبة الرأي اننا لو وصلنا مخزن الاسلحة ما طرأت علينا نائبة فيه لاجتماع الافرنجيين هناك فصوبت رأبها وقصدنا الطريق فلم نكد نسير قليلاً حتى وافانا كارث البلايا اقمدا عن التندم وقطع علينا السبيل .

ظهرت من خلفنا فرقة عسكرية طاغية مع مشاعل وهم يعدون عدواً سريعاً  
 ويمدحون سلطانهم فاستقبلتها فئة عظيمة من الأشرار بحرض بعضهم بعضاً على قتل  
 الأفرنج ونهب أموالهم . ومن سعادة جدنا أن النيل كان وقاية لنا من الابتلاء  
 بالصدقات لأننا كنا نشتي خلفه ولولاه لهلكنا عند التقاء الفئتين فتجز بيننا وبينها وصار  
 حائلاً ينجس . وما زلنا نكابد الأخطار حتى وجدنا باباً عالي البناء فدخلنا تحت طاعة  
 من طاقاته واخفيناً فيها وتلاقت الفئتان فما اطلعنا علينا . وثبت عندنا ثبوتاً حتمياً  
 أن الثورة ستشند وتعضم وأنه سيجري سوابق الفئتين في مضارها وتشكل وجوه الخلاص  
 منها . ولما شاهدنا رجال الفرقين الرابعة والسبعين والعشرين قد نصبوا رؤوس  
 قوادم الإنكليز على أسنة بنادقهم وقد خلا الطريق قصدنا المخزن وزوجي أمامي  
 يمشي قابضاً على عضد آكن . وأما ويل فكان في حجره وقد أخذ النوم وأنا أمشي من  
 خلفها والداية ترافني ونحن نرتعد كأوراق الخريف من خوف ما عايناه وما زلنا  
 نمشي حتى مررنا بجانب جدران خربة محيطة بمدينة الدولة الإنكليزية وإذا بخطب  
 فادح آخر التقينا به افضت حالنا به إلى قلق واضطراب عظيمين وذلك أن الجامع  
 المخصوص للمسلمين كان في آخر الطريق وشاهدنا العساكر يريدون الدخول بهذه  
 الهلة ومع انهم يقتلون غالباً فهم بصرون على الدخول بهجمات شديدة فوضع لنا أن  
 فرقة من عساكر الإنكليز اتخذوا دهليز الجامع استحكاماً حربياً لمنع الطغاة من العور  
 من هذا المقام . فصار ذلك علة للتناحك والنضارب بين الفريقين وانفقوا على  
 انتزاع الجامع من أيدي الإنكليز وأبرموا امر المقاتلة

وكانت المساكن حول المسجد في حالة الاحتراق وكنا نرى الهنود بهيئات عجيبة  
 وصور مهيبة مشوهة يتجولون في البيوت وينبون من مكان إلى مكان بأخذون  
 الأخشاب المشتعلة وبلقونها في البيوت لتعميم الحريق . كانت العمارات والأبنية المتعلقة  
 بسلاطين دهلي في الجهة الشرقية والريج تهب حينئذ من تلك الجهة فارادوا إحراق  
 بيوت الأفرنج وأوقدوا النار في واحد منها فاشتد هبوب الريح شيئاً فشيئاً واضطرم  
 لهيب النار وتدرجت الشعلة فأحرقت الدور والنهبت تلك المباني الباذخة بنفامها  
 وسلمت مساكن الكوركانيين من شرار الحريق . وفي أثناء ذلك هجموا وأزدحموا  
 وناسفوا ووقعنا بين هؤلاء المتعصبين وهم متفقو الكلمة يصيحون أن الدمار والبوار

للانكليز . ومن الاتفاقات الحسنة اننا رأينا في اليمن شجراً لبيت من البيوت فقصدنا ذلك البيت مع علمنا ان الاشرار وردوه وشتموا الغارة عليه وهم مشتغلون فيه الى الآن ولما وصلناه وجدنا دهليزا وسيعاً محفوظاً لاشتداد الظلام عليه فرأينا الاختفاء فيه نعمة عظيمة لوقاية حياتنا . اما الفيلبان فانه رافقنا الى ابتداء المحلة لكنه ما قدر على خرق الصنوف فاضطر للعبور من طريق آخر وكان ويل في حجره غربقاً في النوم فهب من نومه مذعوراً وشرع في العويل والبكاء . وعلاصوته فعلت ان الاشرار الذين في داخل البيت وخارجوه سيطلمعون بدلالة الصوت على مكاننا فكنت الاطفة واقبله وهو لا يسكت ويستمر في عويله . وهل يعلم الطفل الصغير في اي حال نحن

## الفصل التاسع

### ❖ السرداب المهول ❖

والدار التي التجأنا الى دهليزها لرجل ممول انكليزي لانعلم هل فر منها في اول الثورة مع اهل بيته ام وقع في محالب الموت . اما الهنود فكانوا يعدون في الغرف النوقانية ويحسسون الحجرات كالجنانين بصوتون بصوت الثرود والسنابير ويشبون من نافذة الى اخرى يكسرون الآنية الثمينة وبنرغون قوارير العطريات في الارض ويحرقون الوسائد المزركشة ويمزقون نضاييد الديباج وستور الحرير . فلما فرغوا من اعمالهم جمعوا حزم الحطب والعيدان في ساحة الدار كحلٍ صغير كأنهم يعزمون على احراق امواتهم كما هو من عوائدهم المذهبية ثم شرعوا يتفحصون المراتب الخنانية ومضابيق البيت ونحن نسمع اصواتهم الشبيهة باصوات الكلاب التي تعاقب الصيد وتحنثه فاذا بلغت اليه اولجت انيابها في اعضاء ذلك الحيوان وصانت بصوت ينبي عن شغنها وسرورها . وهؤلاء الاشرار كانت ترتفع اصواتهم كل بضع دقائق ثم تتبع ذلك الصوت المنبي عن الفرح والنشاط انة فجمعة توضح لنا ان الانين من المضروبين وصوت النشاط من الضارين

لم يلتفت البنا احد من الاشرار الى هذا الوقت لاحاطة الظلمة بالدلهيز وعند ذلك داخلنا رعب شديد مخافة انهم اذا اتوا عملهم وارادوا الخروج من الدار نجسوا الدلهيز فيسكون دماءنا وينضي امرنا الى ما لا تحمد عقباه . فتوكلنا على الله ووردنا ساحة البيت وقلوبنا واجفة مما ستلقاه من المناظر المكرمة فاخذنا في زاوية احاطت بها اشجار كثيرة ونبات اثير ولما قرأ بنا الفرار وجدنا في الجدار نافذة مطلة على سرداب وبعد هتية ارتفعت من هذا المنفذ صيحات شديدة واصوات هائلة واطلقت عدة رصاصات متوالية . ثم اسنار بعض السرداب فتفرسنا فيه فشهدنا جماعة من الافرنج وقعوا في محالب انتقام اولك السفاكين وانزلوا في قهرهم . استمرت الجلبة خمس دقائق ثم انطلق السراج . وغلبت على السرداب ظلمة وبعد هتية شاهدنا الاشرار يقبضون على رجل طويل القامة يجرونه من السرداب ولما وصل وسط الساحة اوقدوا النار في تلك العبدان المجمععة هناك وقربوا ذلك الرجل منها فخيّل لنا ان الطغاة يتلونونه اولاً ثم يطرحونه في هذه النار الموقدة لكنهم اقدموا على امر فظيع ارتجفت ابداننا من معاينته وطارت له انفسنا شعاعاً . وذلك انهم القوه في النار وسلوا سيوفهم وصوبوا نحوه مسدساتهم واحاطوا به احاطة السوار بالمعصم فهاجمت النار واضطربت اضطراراً شديداً وفاح القنار . اما ذلك الرجل النعيس فكان يريد الخلاص وهم يمنعونه باسنة بنادقهم وظلمات سيوفهم ويرجعون اليه بضرب المقارع المولمة ويجيبونه بالاجوبة المقتدعة وبرمونه باللعنات والشتائم

واني اتعجب من ثبات هذا الرجل العيور وشهامته فانه عزم على الفرار ثلاث مرات حنظاً لحبائمه فلما استحوذ عليه القنوط واليباس جلس في وسط اللهب من غير ان يلغى الى الاشرار ثم بسط يديه الى السماء واشتغل بالدعاء حتى اكلته النار واحترق فصار رماداً وحال الدخان بيننا وبينهم . ولا نسل عما ألمّ بنا من الرعب بين يدي ذلك المشهد الم هول الذي نرى فيه الدواهي سود المناظر والمنايا حمر الاظافر . فربطت في بمبدل خوفاً من ان اصبح من هول هذا المنظر الذي يشعر منه الجماد وتنظر له الاكباد . هذا واستنبطنا من قرائن اقوالهم وفجاري مطالبهم ان ذلك الرجل الذي احرقوه احد نجباء انكثرة ومشاهيرها وانه قاضي قضاء مملكة دهلي واوده وانه هو الذي انتظمت نظامات انكثرة وقوانينها في مالک الهند بمساعيه

وشاعت باقدامه ولهذا السبب قتلوه بهذا العذاب الاليم . ولما احترق القاضي شرعوا بالانتشار رويداً رويداً وتركوا الدار خالية من شرورهم . اما نحن فكنا متخبرين في امرنا الى ابن نلجي وهل من دليل يوصلنا الى برج الميعاد لتصل بابنا . وطننا واذا اردنا المرور من هذا الطريق فان طريقنا من امام الجامع والاشرار هاجمون لاستخلاصه من ايدي الانكليز فاجتمعهم بمنعنا من العبور فقال زوجي قد تخامص الليل وارى ان نتوقف هنا الى وصول الليلان وما تأخرنا حينئذ الا لتواتر الهجمات وتوالي الثورات اما الآن وقد خلت الحلة وارنتعت الموانع سجدنا . على ان بقاءنا في طي الاستتار اقرب لمصلحتنا

فندرت رأيه فوجدته مصيباً لان الهنود اذا احرقوا ذلك البيت وقتلوا ساكبيه لا يمدون اليه وعزمنا على التوقف ريثما يسكن الهياج وترفع سورته . وليالي هندستان على خلاف ايامها فانها تكون في غاية البرودة وقد كنا نصلي ببقايا تلك النار التي احترقت القاضي ثم احنجنا الى مكان يقينا من سطوة البرد فقال زوجي اسلم الطرق ان ندخل احدى هذه الغرف فمشى واخذنا نمشي في اثر فصعدنا من درج عظيمة مشرفة على سطح غرفة وسبعة فوجدنا الحجرات مبنية على سحج احد وقد اتصلت الطرق من هذه الى هذه سهلاً في الدخول والخروج . ولما شاهدناها خالية وراينا الاغلاق منكسرة لان الاشرار حملوا النفاثس الثمينة واحرقوا ما وجدوه ثقبلاً غير لائق بالنقل مازلنا نحص فيها حتى وصلنا الى حجرة صغيرة خلف تلك الحجرات فوجدت هناك اسرة وبسطاً وانماطاً ففتحناها وانمت طفلي وبل فيها وقبيلت وجهه وسألت الله جل وعلا ان يحفظه من الآفات واوصيت الداية ان تحرسه

ثم خرجت مع بنتي وزوجي وبحبنا عن شجرة فوجدنا بقية منها فدخلت بها في السرداب الذي اخرجوا منه القاضي المقتول وقد كنا نسبع اثنا . ذلك ان ابن الجرحى وحشجة المائتين فحنمنا على انفسنا ان ندخل هذا المقام ونفتش فيه عما نانا ان نفوز باقتاذ الذين بقبت فيهم حشاشة من هؤلاء النعماء . وخلاصة القول اننا نزلنا السرداب فدسنا على احوال لزجة زلقت عليها اقدامنا ونحن لا نعلم هل هي احوال الدماء السائلة ام هي من المخمور التي انكسرت دنانها . فاستعنت بالجدار في المشي فاحسست فيه ابصار طوبة غليظة فقربت الشمعة من يدي فرأيتها



ملطخة بالدم وعلمت ان رطوبة سطح السرداب من الدماء الجارية . فما تقدمنا في تلك  
 المذبة الهائلة ثلاث اقدم الا وتورطنا بين اعمار نباح ودماء تساح . وجوارح  
 مقطوعة واشلاء منهوكة . وعابنا في بعض الاركان جماعة من النسوان داميات  
 القلوب بعالجن سكرات الموت وقد فتك الاشرار بهن فتكاً ذريعاً ونزعوا احجامهن  
 ورعنهن وجرت الدماء كالسبول على السابلة . ورأينا في ركن آخر رؤوساً مدحرجة  
 وجثثاً بلا رؤوس متراكمة بعضها فوق بعض فا وجد هؤلاء الاراذل في ذلك المكان  
 الذي هو قرارة المعاييب ومجنيع المثالب طريقاً للقتل الا سلكوه ولا باباً للفظائع  
 الشنيعة الا فتحوه . ولقد شاهدنا ما تشتمر منه القلوب الفاسية وتضيق من حكايتو  
 الصدور الواسعة

فيا لفظاعة الخطب ووجعاً لمن الليلة الدهما . المشحونة بالمصايب والمكارب هلا  
 يؤثر النظر على الجراح في الانسان . وهل الاثمة لانتاً ثر من معاينة الجروح . فنقدمت  
 انا وزوجي واخرجنا الاجساد التي فيها رمق من هذا المضيق ليسهل نزعها واخضارها  
 ثم رأينا بين الفئلي امرأتين اصابتهما جراح قليلة بالنسبة الى الباقيين ووجدت بنتي طفلاً  
 سالماً فاخذ زوجي احدي الجربحين في حجره ليذهب بها الى ساحة البيت حتمنا لدمها فلما  
 اراد الصعود من الدرج صاحت تلك المجرحة صيحة خرجت من اعماق قلبها من شدة الالم  
 فخاف زوجي من رجوع اولئك الرعاع السفلة على اثر الصوت لانهم كانوا مشغولين  
 في بيوت الاطراف بالنفك والنهب حتى الآن وخاف ان يكون لهم عيون او جواسيس  
 فوضعها على الارض فارادت الضعيفة ان تقوم من غير معاونة فما قامت الا وسقطت  
 على الارض من شدة الضعف

فدنوت منها لمعاونتها فاذا بها قد قطعت احدي يديها من الساعدين والدم يجري  
 من محل النطع جرياً سريعاً . اما الطفل الذي وجدته آكن فلا يتجاوز سنة اربعة  
 أو ثلاثة اعوام فلما رأنا نقصه ظننا نريد به سوءاً ففررنا مذعوراً واخفى بين اجساد  
 الفئلي فشرعت آكن تكلمة باللهجة الانكليزية وكانت تلاطفه ونسايه حتى مال اليها  
 وعرف اننا نريد تخلصه فخرج من تحت الجثث ودنا منا والقي بديه في عنق بنتي  
 وشرع يبكي وبفيلها فجددت لي حالته رفة حتى دمعت عيناها . وفيما نحن في هذه الحالة واذا  
 بصوت قاصف كهزم الرعد اتانا من جهة الباب فعلمنا انه صني النيل وان محمداً

وجدنا فاعتزنا من محبته وقتئذ ارتباج تام وشغف باطني اذ تصورنا انه يتركنا ويذهل  
عنا فضلاً من معاوتته على خلاصنا

هذا الرجل الصديق الصافي السريه من مسلي الهند عاش في دارنا في عنوان  
شبابه حتى ناهز عمره الاربعين ومع ان ابناؤه وطلبه كانوا يصرّون على اراقة دماننا  
ظل هو يخالفهم في ذلك ويرافقنا في السراء والضراء وفي حالتي الشدة والرخاء وما زال  
الي ان قتل في سبيلنا كما سياتي وخصالته هن ما يذكر فيشكره الله دره من رجل واف  
بعهوده وموابته فانه اتم مراسم الوفاء وراعي شرائطه حتى الرعاية في مواقف الخنف  
ومواطن الردي . وبعد ملاقاتنا حلف بالله ونبوه ان انقطاعه عنا ما كان الا  
لاشتداد الهجمة التي قطعت عليه السبل فا قدر على سوق الفيل حتى خلت المسالك  
فداوم على السرى فلما وصل بمعاذة هن الدار ووقف فيها الفيل علم محمد اتنا فيها .  
فاستعلمنا منه اخبار الثورة واحوال دهلي فقال . « حدث بين الفريقين معارك  
ووقائع مهولة كانت الدائرة فيها على الانكليز ونسلطت الجنود على دهلي بنامها  
واختاروا سلطانها القديم المنزوي بسلطنة الهند فنبوا تحت الملك . وشنوا الغارة على  
مساكن المتولين وقتلوا من وجدوا من اناك وذكور وشيوخ وشبان ووضع وشريف  
فذهبت دماؤهم ادراج الرياح وقد حصل للاشرار تمام التسلط والنهوض وتحكموا كيفما  
حكمت اهلهم . اما العساكر المخصنون في مخزن الاسلحة فخارت قواهم وانحلت  
عزائمهم فتبدد شملهم وتفرقوا هاربين وما في ابدي انكساره من الاستحكامات الا ان  
مستودع البارود ( بارود خانه ) فان بنية العساكر النجا واليه مع اعظم قوادم  
وضباطهم . ودرب كابل فيه أيضاً عصاة حافلة من الاجانب وقد تدججوا في شكهم  
واستعدوا للنزال . اما الجنرال كراو فانه يقاتل الثائرين في هذا الجوّ وقد اجتمعت  
حوله جماعة كثيرة من الارامل والايام والرجال والنسوان »

## الفصل العاشر

❖ اضطراب عظيم ❖

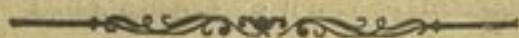
فزعمت انفسنا من استماع هذا القرب واستطارت افئدتنا ارتباجاً ووقعنا في اضطراب

قصم ظهورنا ولا نعلم هل يجوز لنا البيتونة في هذا المقام ام خروجنا اولى وكان  
 محمد يقول اغتصبوا ظلمة الليل وانقلوا من هذه الورطة الويلة الى ما من اخر فاني  
 لا اوافقكم على البقاء هنا . ولكن الى ابن نذهب ان قصدنا دار الانكبيز الفينا نفوسنا  
 في التهلكة وان آمننا في هذا المكان لا نأمن الا بتلا . ببيلة اخرى عند انبلاج الصبح  
 لترب هذه الدار من مراكز العصاة والمساجد الاسلامية ولما شاهد النبلبان اضطرابنا  
 فكر هتية وقال « لا تخافوا ولا تحزنوا اني ادلكم الى بيت أحد من احبائي وهو متقدمي  
 في الطريقة والمذهب على انه رجل طيب العربية صافي النية لا يخالج قلبه الا المصافاة  
 ولا يقاس بهؤلاء الجماعة الذين هاجوا الدين . لكنني اخاف ان نتجهم العصبية فلا يقبلكم  
 متابعين لآباء وطنو وتقليدًا لم . واما اذا دخلتم داره من غير اعلام واطلاع  
 فتجدونها كمعقل حصين لكم . وقد حكتني التجارب واني اعرف منكم بابناء وطني فانهم  
 اذا التجأ اليهم ملهوف يلاقونه بوجه مستبشرة و يرحبون به و يعدون احترامه والتلطف  
 به من شرائط المروءة ودعائم الايمان ويتغاضون عن التعصب الملي والنبان الديني  
 ولا يعابون باختلاف المذاهب وتنافر المشارب ولا يخلون ببذل النفوس في سبيل  
 انفاذه من ورطة التعاسة والخلاصة انهم اذا اجاروا مستغبراً لبوا حاجاتو ما دام ذلك  
 في امكانهم وهو في بيتهم شريف القدر الى ان يخرج منه والاولى ان نبرح مقامنا هذا  
 ونقصد ذلك الرجل واعلم علماً يقيناً لا يشوبه شك انه متفق الآن مع رفقاء المسلمين  
 في القنال وهذا من سعادتكم »

فتأمل زوجي قليلاً وقال له « كيف استولى الطغاة على مخزن الاسلحة  
 ذلك الاستحكام المنيع وما فعلت العساكر المجتمعة فيو هل انت صادق في قولك  
 ام مازح . وهل قتلوا هؤلاء المحصورين ثم تسلطوا عليه » فاجابة النبلبان وقال  
 « ان في هذه الساعة التي انا قائم فيها بين ايديكم حاضر لخدمتكم لم يبق للاتكيز من  
 استحكامات تلك العاصمة الا مستودع البارود وقد تسلطوا على تمام المهمات والذخائر  
 وتبدلت تلك الحصون الشاهقة والقصور المبهجة والمرامح المزخرفة برسوم خاوية  
 واطلال بالية » ولما سمعت آكن الخبر خرجت من السرداب على عجل ونادت باعلى  
 صوتها « لم نأخرون في الذهاب الى مستودع البارود » وقد نسيت بنتي المسكينة مخاطر  
 الميبل وهي انما تريد ان تنصل بزوجها لا تبالي بانقمام الاخطار كانها قد اخنلت

مشاعرها واعلنت حواسها وعند ذلك تقدم الفيلبان اليها وقال « لا تقدرين على الذهاب الى ذلك الموضع ولا ادعك نذهبين لان العساكر والضباط المجتمعين فيه ضموها على احراقه عند الاضرار في آخر الامر لئلا ينسلط الهنود على البارود وسائر الذخائر النارية وليس ذلك الا خدمة للشرف العسكري وتثبيتاً للغيره وحفظاً لناموس الدولة الانكليزية واعلاء اسمها ولئلا يبتلوا بعار الاسر وشنار المغلوبية وسيحرق هؤلاء الشجعان انفسهم بنار الغيره فلا يمكن لك ولا لمثلك الذهاب اليه » فما سمعت آلن هذا الكلام الا واخذتها رعدة وخرت مغشياً عليها . فذهبت اليها ووضعت رأسها على ركبتي ولاطفنها حتى فتحت عينها وذكرت اسم ذلك المخزن ثلاث مرات وسكنت ثم اخذت رأسها بيديها وتنفست الصعداء واستولت بعد ذلك على حركاتها وأطوارها آثار الكآبة وذبل سجاها وانتهكتها الهوموم في عنفوان شبابها

اما الطفل الذي وجدناه في السرداب فانه آنس بأكن أنسا غريباً وكان واقفاً على مقربة منها يبكي على حالتها المحزنة ومحمد يصره على الذهاب . فاشرت اليه هل يجوز في قانون مروتك وطريقة انصافك التي تتسني اليها ان تترك هاتين الضعيفتين هنا ونذهب واي آدمي يرضى ان يترك نوعه في ورطة البليات ويهرب . فلما عابن اصراري على نجاتها دمدم باللمحة الهندية قائلاً « قد تعلمت مشيئة الله بانفراض الانكليز وزوالهم ولا ينبذ التدبير مع تقديره اذ لا راد لامره ولا مقاوم لحكمه » وأطرق ملياً وهو ينكت الارض ثم دخل السرداب من غير ان يكلمني واخرج احدى الامراتين ووضعها في هودج النيل وهي لا تزال نصيح منذ رؤيتنا الى هذا الوقت لانها تحسبنا من الاعداء وتمبنا حتى علمت اننا لا نريد بها شرّاً فسكنت اما الضعيفة الاخرى المنقطعة الساعد فربطنا جرحها لئلا يندفق منه الدم فانكأت على زوجي وصعدت من الدرّج واجتمعنا ووضعناها في الهودج اما الطفل فانه لم يفارق آلن ولم يرض بالجلوس عندها وما زلنا نصر حتى فرقناه منها وعزمنا على الرحيل على اثر النيل



## الفصل الحادي عشر

### ❖ نشد الضالة ❖

ما تحركت هذه القافلة التي سائتها الغم ورائدها الهم إلا واثرت شجرة تعاسني ثمراً  
جديداً ورزئنا بخطب زاد حرارة الاكباد وفرش للمجنوب شوك الفناد . وذلك اني  
تركنت زوجي وبنتي ودخلت تلك الشجرة التي أرقدت فيها طفلي لاوقظة فلحق معي  
ومع دايتو بالمسافرين فرأيت بماط النوم خالياً والداية منقودة فدققت نظري ومسحت  
بصري فما وجدتها وطفنت انجس الزوايا والغرف انشد ضالتي العزيزة فما رأيت  
لها من عين ولا اثر . فشبهت حينئذ شهقة فظن زوجي اني وقعت في ايدي الاشرار  
ودخل الغرفة مع النيلبان وهما مندهشان وقد اخرجوا مسدسهما للدفاع فلما وجداني  
وحيدة قالوا ما العلة لعويلك وصياحك فلم اجد كلمة اقولها من اشتداد المهوم  
ولكنني جعلت العلم وجهي وامزق ثيابي واصبح مثل المجانين واقول اخذوه قتلوه  
فعلت زفرني وطال انقاضي . وبدت لوعتي وسالت دموعي

فماأل زوجي من الذي اخذوه من الذي قتلوه . قلت اخذوا ابني . فقال ابن  
دايتو فاجبتة هي ايضاً منقودة ثم قلت « يا الهي ان مضت ارادتك وجرى نقديرك  
بنقدان طفلي لاكون في الدنيا محرومة من حظوظ ملاقاته فاسأل لك ان يمن علي بموت  
عاجل لعلي اراه في العالم الآخر فقد انهكتني المصاعب ولا أقدر على مفارقتو » وبعد  
هذا اخذ زوجي شجرة وشرع بقمس الشجرات حتى اتى على تمامها فلما ياس من وجدان  
ويل شاركني في البكاء والنواح ومن زيادة القمص وتراكمها اتفنت له حالة غشوة  
فسقط على وجهه مغشياً عليه عند منامة ابني فلما عاينت حالته نميت هي وخرج خيال  
ويل من مخيلتي فوقفت على رأسه وقد اصفر لونه ونشبت هديه بهديه واستولى  
على حواسه هود عظيم لا يتحرك ابداً ففنت ان تعتريه سكتة او فجأة لان الحوادث  
والخطوب التي تقبل على المرء بغتة كثيراً ما تورث السكتة والهلاك وازدادت وحشي  
من ان يخنت من همت الغمص فيتركني في ورطة البلايا . نحن الامهات نكوف

رفيقات القلوب بالنسبة الى الآباء وذلك من التواضع المحتسبة التي أودعها الله جل وعلا في طبائعنا ولولا هذه الرقة والحفاوة لتبدد سلك تربية الاولاد . وكان عليّ ان اكون أكثرها وأزيد غصة من زوجي لكنني تجلّدت وشرعت بنسليته وفتحت حلقات قميصو لدخول النسيم البارد الى قلبي ثم وضعت في عليّ أذنه وصرت أسليه قائلة :

« ان الدابة لما نصورت حالة ابتلائنا وصدما تننا الواردة توحشت واخذت طفلنا وذهبت به الى ما من لحافظتو . هوّن عليك الامر سجد ابنتا قم بنا نذهب لعلنا نجد في احد المعابر » ولكن واسني فان كلماتي ما اثرت في زوجي وكان الروح فارقت ذلك الجسم العزيز فايقنت بموتو فقلت في نفسي يا ترى ماذا افعل الآن دعوت محمداً مراراً فما اجابني واذا به دخل ووضع على الارض طستاً مملواً من الماء وشار بصب الماء على قلبي وجبهته وما زلنا نرش عليه الماء حتى افاق قليلاً بعد مضي دقائق وسمعنا منه انبثاً ضئيلاً دلنا على حيائه ولما فتح عينيه سألني عن بنتي آلن بصوت رخيم وقال ابن هي فانه كان متيقناً انه لن يلاقي ابنة بعد ذلك ففزع علاقتي وتعلق رجائه بالكن ثم قبضت على ساعده فانكأ علي حتى استوى جالماً وعانفتي واستمر البكاء بيننا لفقد ولدنا الذي كان ذخر شبابتنا فرق قلب الفيليان من نواحننا وقال لي « خنضي عليك الامر وهو في ولا تندي اكثر من ذلك وكوفي قوية القلب واني اعلم ان ولدك عند دابته الآن ترين هذه الغرفة ليست فيها اثار دم وقتل نفس انظري سطح الغرفة هل تجدين فيه شيئاً من ذلك . هذا وقد اشترك القتال واستمرت نار الحرب خذي حذرك وبادري بالحركة مع زوجك وبنك عسانا ان نجو من هذه الورطة واعلي ان الدابة لما رأت ارتباك امرنا ذهبت بهذه الامانة الثمينة الى مكان آخر . ولقد طالما جرّبت الدهر في حالتي شدتي ورخاوتي وطالما لدغتنني عقارب المصايب وسرت اليّ سمومها ووقعت مع الخطوب السود فما قنطت من رحمة الله الشاملة حين نورطي البلايا وابتلائني بمكابدة الهموم لانه تعالى فتح عنقدها حتى هبت سعادتي من رقدتها وهو الذي يوصل الطالب الى مطلوبه والحب الى محبوبه وقد قبل للدهر طعمان حلوا ومر وللايام صرفان عمر ويسر » ومجهل الكلام انا لم تعرف لوبل مثوى . وذهبت ابجائنا عنه بغير جدوى ونسليتنا بكلام الفيليان وخرجنا من البيت والدموع تجري

الله تعالى بمساعيك المشكورة . ودخلنا مأمناً منيعاً . لكن قلت له ابن ولدي العزيز فقال « لا تبا سي ولا تجزي ان الله بكلاءه وسافخص عنه بعد ساعة اما الآن فعلي ان اميي . لكم شيئاً من الطعام لعلكم تنغدون به » قال هذا وذهب . اما غرقتنا هذه فوجدنا في وسطها طاولة مستديرة عليها سراج اضاء الغرفة وما حولها وفي اطرافها عتق من الكراسي والخموت الافرنجية فاستلقينا نؤمل ان تنام لعلنا نرجح ادمغتنا من الشوبش . وظني ان النوم ما قرب من اجفاننا ففقدت كفت طريجة في موضعي لا اجد للنوم سبيلاً ورفقائي امثالي قد انكمت اضلاعهم عن الاطجاع الا هذا الطفل الذي وجدناه في السرداب فانه كان قد اخذ منه النوم ماخذه

وقد يعلم قراء قصتي المحترمون ما هو شعلي الشاغل فاني كنت لا اذكر احتراق بيتي ومسكني ولا اعباً بشتات حالي وسوء مالي ولا اذكر مصائب الآتية بل نسبت الحوادث كلها راضية بجران القضاء والقدر وانحصرت تفكراتي في ابني وبل وتعلقت حواسي بتردد تذكاره تعلقاً شديداً لانتك منه طرفة عين . يا ترى هل اخطفنته المنون ام في اي حال هو . وليت شعري هل هو سالم الآن كما كان عندي . اما قلبي فكان يبشرني نارة بحياته وانني سأفوز بسعادة ملاقاته واخرى تأخذني الهواجس بانة لو قتل في ايدي السفاكين ما افعل بعده وكانت وساوسي تزداد شيئاً فشيئاً حتى بدت تباشر الصباح والفت الشمس رداً منها النضي على جبين الفلك

جاء محمد وقتئذٍ وفتح باب الغرفة واتانا بخبز وفاكهة وشيء من الطعام المطبوخ واكدنا كيداً بليغاً في عدم خروجنا من الغرفة وقال « اوصيكم بان لا تخرجوا من مأمنكم هذا الى قاعة الدار فان الهنود لا يبتون على احد ويسكنون دم كل من وجدوه لا يشفقون ولا يرحمون وعليكم ان تخبئوا ما دامت الثورة قائمة والهياج مستمراً لان الاشرار لو اطلعوا على مكانكم قتلوك واعدموا صاحب البيت في الحال » ثم وجه خطابه الي وقال تسلية لي « احلف بالله اني ساجد ابنك اليوم باي طريقة كانت » وكان المجمعون هنا ستة انفار فانقسمنا الى ثلاثة اقسام . فالجرحوتان اللتان خلصتا من الهلاك جلسنا في زاوية . وذلك الطفل رافق بنتي وجلس عندها . اما انا فكنت مع زوجي ملتفتة لاحوال آكن واعمالها اذكر لها المصائب الواردة لنا ببيان مبهج عسى ان تنجس من عينها قطرة دمع فينطق طيب عصمها في داخل قلبها

والتملص من ايدينا . فقال زوجي ابن ترديدن في مشيتك . فاجابت اذهب الى  
عزرن البارود لان زوجي فيه واني متيقنة انه يترصد وصولنا . يا ويح قلبي ان ابنتي  
صارت مجنونة لا تعبا بنصائحنا وقد اشتد شوقها الى زوجها فجعلت جلها هما بلوغ  
اوطارها كأنها هيكل يمثل حالة الحزن وناهيك ببال مشتغل . وبلبال مشتغل  
ومن البلية عدل من لا برعوي عن غيو وخطاب من لا يهتم

## الفصل الثاني عشر

### ❖ بيت علي ❖

فاخذناها بالعنف وتنا بطننا ذراعها واخبرناها بما بعثنا . وهذه الهلة التي نحن الان  
فيها اسلم الهلات على اننا كنا نسمع من بعيد عجة الضارين وضجة المضروبين ونرى في  
الافق المظلم الذي يجاذي الافق الشرقي شعل النار التي علت من البيوت المحترقة . وفي  
اشاء ذلك وقف النيلبان وقال « قنوا هنا وانتظروني ولا تخرجوا ابداً حتى آتيكم  
بخبر » قال ذلك واخذ ناحية الجدار واستمر في السرى وكان الجدار مخصصاً  
فكنا نرى شجيرة في طول خط هذا الجدار الابيض فما فارقنا عشرين قدماً حتى توقف  
فلاحظت بدقة ووجدته متوقفاً امام باب عظيم بقرعة بطرز خاص بهم السامع منه  
ان قارع الباب له ود قديم وسابقة عهد مع صاحب البيت . ففتح الباب وطالت صحبته  
مع الفانح برهة . فيا لها من صحبة حفت دماننا ومكاملة اشترت حباننا . تلك المكاملة  
التي لم تمتد اكثر من خمس دقائق لكنني تصورتها اطول من خمس سنين حيث كنا  
بين خوف ورجاء وانقطاع والنجاء حتى اذا تمت الصحبة وصفر محمد فعلنا انه بدعونا  
فتحركنا حتى بلغنا باب الدار فاشار بالدخول فلما دخلنا حسبنا انفسنا في جنة عدن  
فمررنا من حديقة وسيدة تنتهي الى عارة عالية فوقنا عندها وحططنا اجمالنا من متن  
النيل ووردنا غرفة فاغلق النيلبان بابها وقال وهو فرحان « احمد الله على شمول  
نعمو عليكم لانه وفني بعون وعنايتو الى انتادكم من الملكة » قلت نعم انقذتنا الطاف



الله تعالى بمساعيك المشكورة . ودخلنا مأمننا منيعاً . لكن قلت له ابن ولدي العزيز فقال « لا نبأ سي ولا تجزي ان الله بكلاًه . وسافحص عنه بعد ساعة اما الآن فعلي ان اهبي . لكم شيئاً من الطعام لعلمكم تتغذون به » قال هذا وذهب . اما غرقتنا هذه فوجدنا في وسطها طاولة مستديرة عليها سراج اضاء الغرفة وما حولها وفي اطرافها عدة من الكراسي والتخوت الافرنجية فاستلقينا نؤمل ان ننام لعلنا نريح ادمعتنا من التشوُّب . وظني ان النوم ما قرب من اجفاننا قط فقد كنت طريحة في موضعي لا اجد للنوم سبيلاً ورفقائي امثالي قد انكبت اضلاعهم عن الاطجاع الا هذا الطفل الذي وجدناه في السرداب فانه كان قد اخذ منه النوم ماخذه

وقد يعلم قراء قصتي المحترمون ما هوشغلي الشاغل فاني كنت لا اذكر احتراق بيتي ومسكني ولا اعباً بشنات حالي وسوء مالي ولا اذكر مصائبي الآتية بل نسبت الحوادث كلها راضية بجران القضاء والقدر وانحصرت تنكراتي في ابني وبل وتعلقت حواسي بتردد تذكاره تعلقاً شديداً لانتك منه طرفه عين . يا ترى هل اخطفته المنون ام في اي حال هو . ولبت شعري هل هوسالم الآن كما كان عندي . اما قلبي فكان يبشرني نارة بجهانتي وانني سافوز بسعادة ملاقاته واخرى تأخذني الهواجس بانته لو قتل في ايدي السفاكين ما افعل بعده وكانت وساوسي ترداد شيئاً فشيئاً حتى بدت تباشر الصباح والفت الشمس رداً عنها النضي على جبين الفلك

جاء محمد وقتئذٍ وفتح باب الغرفة واتانا بخبز وفاكهة وشيء من الطعام المطبوخ واكدنا كيداً بليغاً في عدم خروجنا من الغرفة وقال « اوصيكم بان لا تخرجوا من ما منكم هذا الى قاعة الدار فان الهنود لا يبتون على احد ويسفكون دم كل من وجدوه لا يشفقون ولا يرحمون وعليكم ان تخبئوا ما دامت الثورة قائمة والهياج مستمر لان الاشرار لو اطلعوا على مكانكم قتلوك واعدموا صاحب البيت في الحال » ثم وجه خطابه الي وقال تسلية لي « احلف بالله اني ساجد ابنك اليوم باي طريقة كانت » وكان المجمعون هنا ستة انفار فانقسمنا الى ثلاثة اقسام . فالجرحوتان اللتان خلصتا من الهلاك جلسنا في زاوية . وذلك الطفل رافق ابني وجلس عندها . اما انا فكنت مع زوجي ملتفتة لاحوال آلن واعمالها اذكر لها المصائب الواردة لنا ببيان مبهج عسى ان تنجس من عينها قطرة دمع فينطق طيب عصنها في داخل قلبها

ويخرج بعضها بواسطة البكاء.

لعلّ انحدار الدمع يعقب راحة من الهم او يثني نحيي اليلابل  
 لكنها لم تكن نعباً بكلامي ابدأ ولا تأكل الغذاء فاكلنا شيئاً من الناكهة فانسدّ  
 المجموع وشربنا الماء من ابريق كان عندنا اماهاتان الضعيفتان فكانتا تنشقان من الماء  
 اكثر مما يلزمها فاتفهما بعد ان سكن عطاشهما شرعنا نغسلان جروحهما بذلك الماء القليل .  
 فنقدمت اليهما وقلت لهما بلطف ووداعة اريد تنهيهما « ان الماء الذي نلناؤ  
 بهذه الصورة كل قطرة من قطراته سبب لوقاية حياتنا فهل تقدران على شربة  
 منه بعد الاسراف والانتلاف . ام نظمان اننا على شاطئ بحر او ضفة نهر » وكنت  
 مترصة انها تكفنان ايديهما عن التذير لكنهما حاجتا غيظاً وحددنا اعينهما الي وقالنا  
 « يا للعجب نحن نتجادل في هذه الغرفة دلي قطرة ماء ودينار ابنا وطيننا تجري في معابر  
 دهلي كالسواني »

ولا بد ان اذكر هنا ان هاتين المرحومتين اصبحتا في شدتنا هذه مزبداً على  
 وبالنا وضعفنا على ابلتنا لانتحاننا ابدأ بل كانتا في نور طبع وبغض شديد  
 منا وما ذنبنا الذي ارتكبناه الا اننا كنا وسيلة لنجاتهما وسبباً لحياتهما على انه كان محققاً  
 لهما اننا لولا وصولنا البارحة وبذلنا المهمة في سبيلهما ما وجدنا برءاً من الموت  
 الزوأم وان ما تغرب شمس ذلك اليوم الا وتكون شمس عمرها افلة زائلة  
 ومع ذلك كانتا معنا في اشد تكبر لاسيما بعد ما علمنا اننا من طبقة الزراعين فازدادت  
 كبراً وها . كانت لزوجي مهارة في مداواة الجراحات فربط ساعد احدها وكانت  
 قد اشرفت على الموت ومن سعادتهما انه انسدت فوهة الفرجة وانقطع اندفاق الدم  
 الجماري منها الذي كان علة قوية لازهاق روحها . اما الاخرى فكانت في عينها اليمنى  
 فرحة كبيرة ثمن من ألمها وظهر ان هذه التعمية ستعيش معبوبة العين بعد مدة قصيرة .  
 ونحن ما اردنا كتمان نسبنا واخفاء امرنا عندها الا لاطلاعنا على اصلهما فما ظفرنا من  
 ذلك بشيء . برح قلوبنا مع اني كنت اريد الاطلاع على حالهما بطريق الاجمال لاعلم من  
 اي الطبقات هما . فشرعت الاطف ذلك الطفل واستميل فؤاده ليرتفع الحجاب عن وجه  
 السر فقال انه ما رآها قط الا هنا . ثم انكشف في اثناء الصحبة انه ابن ذلك القاضي  
 الذي احرقه الهنود بمراى منا وهو لا يعلم ان قد قتل ابوه وصار يتيماً بل يحسبه قد ذهب

الى محاربة الاشرار وبتنظر عودته . ثم زادنا بياناً وقال « ماتت امي قبل وقوع هذه الواقعة بسنة اشهر وكانت خالتي تربيني في حجر اشفاقها في تلك الدار الوحشة التي وجدتموني فيها » فعلمنا ان خالته اعدت مجلس ضيافة لسوان الانكليز ولما انعقد المجلس هجم الهنود عليه فالتجأت الاضياف نساء واطفالاً الى ذلك السرداب والرجال قابلوا الاشرار في ساحة البيت ولتكاثر عددهم ونوافر مددهم غلبوا على الافرنجيين وقتلوهم باسرم وحينئذ وقع بين هاتين الامراتين نزاع فتشاجرنا وعلمنا ان في الكنانة نبلاً فقالت واحدة منها للاخرى « اينها التعيصة لا تقدرين بعد هذا ان تدخلني المطايخ وتكوني طباحة بيدك المقطوعة » فاجابتها الاخرى « ذهب بصرك وهبط نجحك وقد فقدت احدى عينيك ولا تقدرين من بعد ان تنومي بالخدمة ونعززي بحاجبك الى معشوقك » فعلمنا مع تكبرها ان احداها طباحة والاخرى خادمة . وفي ابي حال انها وقتئذ منساويتان في الشؤون والرتب ومع ما رايت من الخيلاء والغرور فيها لم افهمها اطلاعي على انها ليستا من فرع اصيل وطبقة عالية لاني رايت ذلك خارجاً من قاعدة الانسانية بل سلكت معها طريق الخفاوة مبالغه في تنقد احوالها على خلاف ما كانتا عليه . فازلت ادارهما حتى لانت طباعهما وشرعننا في الالفة والخدمة لي ولبنتي بقدر الامكان

وبعد ان لاحت انوار الصبح واضاءت جبهة الليل الحالك بشعاعها المتتابع وجدنا انفسنا في غرفة وسبعة مخصصة الجدران ورأينا ارضها قد فرشت بالرخام ووضعت المخدات المطرزة في زواياها . ان هذه الدار احسن الدور اماناً واستحكاماً وهدوياً واطمئناناً وكانت الثورة في اشتداد والحلبة مستهورة واصوات البنادق والمدافع مرتفعة نسعها على التوالي من كل الجهات . لقد هجمت الكوارث والمصائب من امس على قلبي هجوماً لا يطيقه فرد من افراد البشر ولا يزنه ميزان . فتارة انحص سبب حدوث تلك السوانح واسلي خاطري بحيل خيالية واقول ان البلايا التي اصابني الى الآن تعبير روياي واخرى انصور انه عراني خلل في مخيالي او علة في دماغي وان لا اصل لهذه الوقائع المشهودة وليست لها صور خارجية بل هي محض تصور او اني كرمعت صبح الامس كرمعت من كأس البنج كما يفعل الهنود وان ذلك نتيجة اما زوجي فقد داخله الانفعال من فعوده عندنا وبقي ساكناً لا يتكلم بتمني اللحق بابناء

وطه والحضور معهم في معركة القتال نارة بهم بالخروج من هذا البيت ونارة يقبل على نفسه بالتأمل والفكرة وبعد ان اطرق طويلاً رفع راسه وقال تسلياً لنفسه « الآن حيث طلعت الشمس لم تبق قدرة للاشراق على اثاره النتن ولا يتمكنون من المقاومة امام عساكر الانكليز وسينهمون الى عصر يومنا هذا وسوف تنتظم دهلي والعساكر والقواد المتحصنون في بارودخانه يملون شعبتهم في اقرب وقت ثم ان العساكر الهندية ما اشرعوا عوامل العصيان باجمعهم فان منهم جمهوراً كبيراً في ميترية لم يدخلوا دائرة الثورة وهم باقون تحت قوانين الانكليز يواظبون على حفظ مواثيقها العسكرية يترصون الانصال بالانكليز ليخدوا معهم في قمع الثورة »

ثم شرع باظهار رأيه في نظام الهند وسياسة الآتية وقال « لو بنت انكثرة قواعد عساكرها الهندية على اساس متين وبنیان مستحكم وواظبت على تنظيمها ما وقعت بعد ذلك في مضيق الهرج والثورة » لبت شعري هل هذه عنيقة زوجي ام هي نثقة مصدر ينكلم بها تسكيناً للوعتنا واطفاء نيران اضطرارنا ام هي كما بينته آتناً باق على قوله انه لا دليل لهذه الثورة الا نور قلوب الجنود من استعمال الرصاصات الملوثة بدهن المختبر او البقرام هو قد خرف وانثي بالصم فلا يسمع الضوضاء والاصوات المرتفعة الهائلة حيث يصيح الاشرار ويطلبون حربتهم وخروجهم من تحت قوانين الانكليز بقوة اسلحتهم ام هو لا يعلم ان هذه الثورة ليست مخصصة بنقطة او نقطتين مثل ميترية ودهلي وانها قد شبت نيرانها في اصقاع الهند وكل انحاءها واقطارها ولا يعلم ان انكثرة لا تقدر على نسخ عوائد الهند واستهلاك رسومهم وشراعتهم وانه لا يتأتى لها ان تتركهم تحت نفوذ عدة من امرائها مع تباين المذهب واختلاف المشارب وعدم توافق الاراء والعقائد

كلاً . ليس كذلك زوجي اذ ليس هو بضرب ولا باصم ولا هو بتصام بل يرى ويسمع ويحيط بمجمل المطالب وتنصليها قد حلب الدهر اشطره وذاق حلوه ومن وعجم عوده وانما تعود هذه العادة واخذ حسن الظن مسلكاً تقليلاً لوحشنا ومن غرائب امالو ان يقول حينئذ « سينظفني طيب الهياج وستعود ايام السلم وتكون على غاية ما برام من السعادة وناخذ الخيما التي انفتحت لنا عند تخريب بيتنا واغارة الاشرار عليه وجبر هذا الخسران من التكاليف على ذمة الحكومة على حسب القانون »

وفي اثناء الحديث وقد كنت اصدق اقوال زوجي في ظاهر الامر كان دوي المدافع  
 بانينا من غير انقطاع فرفع راسه واصاح بسمعه ثم قال « الا تسمعين صوت المدفع  
 بانينا على غير حالته المعهودة فاظن العساكر مذخرة من القنابل الصغار شيئاً كثيراً  
 والاصوات التي ترتفع بعد اطلاقه ثم تسكت بضع دقائق ثم يتجدد اطلاقه فيستنبه انين  
 كل ذلك دليل على ان المدافع تنلف اناساً كثيراً في كل دفعة ويكون ذلك  
 الدفع الموقت فاصلاً لحملاتهم فيؤخرهم عن الهجوم ثم يجتمعون ثانية . وانا انصوّر  
 ان الجلبة تاتيها من قلعة سليم غوري » فاجبتة ليس الامر كما نظنته فان تلك القلعة  
 الى يميننا والاصوات تاتيها من اليسار وبخالج خاطري ان هذه الحاربة عند درب  
 كاكونا او في ميدان بارودخانه فاصاح برهة وقال « علمت ان مدفعية ميرتهه المنحة  
 معنا تجاوزوا جسر جمنا وبدأت المقاتلة من خلف الاشرار ووقع الطغاة ان شاء الله  
 بين مهلكتين وما تمضي برهة الا وينكصون على اعقابهم وستضع الحرب اوزارها وتغلي  
 غبارها ونعود الى دارنا ونجد فيها ابنتنا مع دابته » فقلت نعم لو شاء الله فعل . فمضت  
 على ذلك عدة دقائق وما سمعنا صوت بندقية ولا مدفع قط . ثم سمعنا صوت مدفع  
 واحد تبعته اصوات البشاشة التي كانت علامة للفتح والغلبة . فتخبر زوجي وقال يا ترى  
 ما الذي وقع هل خلت عساكر انكلترا مستودع البارود فتصرف الهنود في هذا الموضع  
 ايضاً . ولما ذكرنا اسم بارودخانه قامت آكن وقبضت على ساعدي بدنة وقالت ما  
 قلتم عن بارودخانه . فاجبتها ببيان لطيف وقلت ان مذاكرتنا كانت مبنية على تحصن  
 الانكليز في هاتو النقطة المساعدة لهم . فقالت ان كان الامر كذلك فلم لا نقصدها ولا  
 يلحق بوبليام

## الفصل الثالث عشر

### ﴿ احتراق بارود خانه ﴾

ما اتمت آكن كلامها واذا بصوت مهيب طرق سمعنا فنجيل لنا ان الجبال اندكت  
 وتزفت الارض فتطابت ارواحنا شعاعاً واكنسى بياض النهار اغبراراً فيالة من

صوت ارتجت منه الآذان وانخزلت له المتون . وانبعث في اثر هذا الصوت الهائل دوار في رأسنا فلم نستطع الجلوس فوقعنا على الارض وعلمنا ان مخزن البارود قد احترق ولا ادري كم طال ذمولنا الا اني لما اقيمت شاهدت نفسي تحت الجص والتراب والروافد التي خرجت من المنقف لشدة التزلزل فعادت حالتنا الاولى رويداً رويداً وكانت بنفي ساقطة على الارض كأنها مينة فاخذناها ووضعناها على سرير والدمع ينهال من عيوننا . بادت ثروتنا وفقدنا ولدنا العزيز وبتتنا الآن في حالة الاحضار .

وخلاصة القول ان المؤرخين يثبتون اسما . الامراء العسكرية والنواد الذين ابدوا الاخلاص واليسالة في احراق هذا المخزن عند الاضطراب فبدلوا انفسهم بين طيب النار ووقع السيف البتار لانها وقعة مهمة طمعت بذكرها غدران الصحف وسالت بخبرها الاقلام فلا حاجة بذكرى اسما هؤلاء اللبوث الاشداء الذين قتلوا انفسهم في الذب عن ناموسهم والحمامة عن حقوق دولتهم ووقاية حبيبتهم الا اني اذكر هنا ما سمعته من احد الشجعان وكان شاهداً تلك الوقائع

قال الشاهد الموما اليو « في اليوم الذي سمعتم فيه هذا الصوت المهيب كانت مدينة دهلي في تصرف الطغاة وانهمزمت بنية العساكر التي كانت تحارب الاشرار في درب كابل ونبواً سراج الدين محمد بهادر الكوركاني سربر الملك وكانوا مع ذلك يباشرون نهب الاموال وقتل النفوس . فاجتمعت اعظم القواد مع فرقة مدفعية وطابور من مشاة عساكر الانكليز في بارود خانه وتحصنوا فيه وتعاهدوا ان يواظبوا على حراسة ذلك الاستحكام ولا يسلموه للاعداء بالاختيار . وكانوا ينتظرون ورود فرقة انكليزية لمعاونتهم ( وكان صهري وبيلام معهم ) ثم انقبوا من بينهم قائداً اسن فوضوا له رئاستهم في هذه الملحمة العظيمة ولم يبق لهم امل ببقاء الا بقاء شرف اليسالة

« وبناء على التجارب التي عايناها هؤلاء القواد في مدة اقامتهم الطويلة في الهند كانوا يعلمون ان الاهدان لهم جرأة ومهارة في اقتحام معارك الحروب بحسنون الحملة الاولى فاذا انهزم عدوهم فازواهم بامانهم وان صدّهم مانع قوي وتصادم عظيم انكسرت سورة صولتهم ونجرت حرارة اقدامهم . فرأوا انهم لو تحصنوا في هذا المكان اربع وعشرين ساعة وعلمت بذلك القواد والعساكر المتبصرون في اطراف دهلي

فينسلون اليهم حينئذ من كل حذب ولا يتركون هذه العاصمة في تصرف الاعداء .  
 ونظراً للامنية التامة التي شاهدها دولة انكلتر من الاهالي ايام اسنيلاها على الهند  
 والطاعة والاستسلام للذين رأيتهم منهم ايام السلم ما اهتمت في سد خلال ذلك المخزن  
 وتزويده كما يجب . وعلى الرجل الحازم العاقل ان لا يغتر بامنية مؤقتة ولا يطمئن لها .  
 وعلى ارباب التجارب والامراء وكابر الدول ان يتدبروا ايام الصلح حالتهم الآتية  
 وبلا حطوا المخاطرات المستقبلية . كم من خطوب عظيمة وحروب جسيمة لم تكن الدول  
 تتوقعها ولا تترقب حدوثها فانفتت بغتة واورثت نتائج وخيمة وخسائر خارجة عن  
 نطاق التمثل . كما اصبح ذلك التساهل سبباً لغلبة الاشرار على بارودخانه . والخلاصة  
 ان المتحصنين وضعوا امام استحكامهم مدفعين عيار ( ١٥ سنتمتر ) وامروا باطلاقها  
 ما دامت القنابل باقية . ولما تمت الذخائر دقوا هذين المدفعين على الارض بالاوتاد  
 ودخلوا المخزن ويتدروا بالمقاتلة من داخل الحصار وعزموا على احراق البارود المخزون  
 هنا عند الاضطرار لئلا يتمكن العدو من استخدامه ولا جراه هذا التصدياخر جواً مقداراً  
 كبيراً من البارود ومدوا خطأً بارودياً من المستودع الى مخيمهم وتناول زعيمهم ذلك  
 القائد العجوز ذبالة مشتعلة ووقف على رأس الخط ليضعها عليه عند الحاجة . وفي  
 اثناء ذلك ارسل اليهم سلطان دهلي رجلاً من خواصه يستميل افئدتهم ويعدم الامان  
 ان خلوا المخزن . فهدد الرئيس رسول السلطان وارغد وازيد حتى رجع على حافزوه  
 وعند ذلك رفعوا اصواتهم ودعوا لدولة انكلتر والتمسوا سلامة ملكتها فيكتوريا . ولما  
 ينس السلطان من الاستيلاء على المخزن امر جنوده بالحملة المتواليه . فازدحموا ونسقلوا  
 جدرانها واشتدت المعركة وارتيك الامر وما اجدى اطلاق المدافع شيئاً ولما انقطعت  
 حبال مناومتهم طلق بودع بعضهم بعضاً ثم وضع رئيسهم النار على خط البارود فاحترق  
 ذلك البناء العظيم مع من فيه وانفجرت اركانها وهلكوا جميعاً الا شخصين نجيا من  
 هذه الداهية الدهياء وما كان خلاصهم الا من قبيل خرق العادة او الاعجاز .

ومجمل القول ان الفييلبان ظهر في منتصف النهار وقد لنظ الفييل لجمامة واجهته  
 النهب . وكان الجوع قد اضر بنا فنلقيناه بالبشر والترحاب واظهرنا البشاشة في  
 وجهه ونحنزنا لاستياله اما واسني ان ذلك الارتياب لم يدم اكثر من دقيقة اذ  
 وجدنا يديه خاليتين من الطعام فتبدل رجائنا بالياس وشاهدنا في وجهه اثار

وحشة عظيمة فسأله زوجي ما الذي وقع بعد هل عندك خبر عن بارودخانه فاجابة  
ولكنه اقرب من الكراسي والتخوت وكسر بعضها وبسط عليها البسط والامناط وقال قوموا  
واختفوا تحت تلك الاسرة بدون تعليل وتأخير فعزمنا على الاختفاء واذا بالقبليان  
قد قرب من باب الغرفة وجعل يسترق السمع ثم قال عجلوا عجلوا انهم سيدخلون وكانت  
بنيتي تنس على الدوام وتكرر اسم بارودخانه بصوت خافت فسدنا فيها بالعنف  
واختفينا تحت الاسرة . وهي ليست برتفعة عن سطح الارض اكثر من شبر فوقنا على  
بطوننا بترتيب خاص فنضد محمد اناث الغرفة والاتيها فوقنا لئلا يستدل الطغاة من  
رؤيتنا على وجودنا تحتها ولم تمض طرفة عين من استنارنا الا ودخل اولئك الاشرار  
الى هذه الغرفة فسمعنا قهقهة اسلختهم وكانوا يقولون باعلى صوتهم « الابقاء على الانكليز  
حرام » ولما رأوا خلو الغرفة غلب عليهم سكوت طويل فسمعنا وقتئذ صوت القبليان  
يقول لم مستهزئا بهم لم تصغوا لقولي وكفيتم انفسكم مؤونة التفتيش حين قلت لكم انه  
ليس هنا متنفس من هذا الجنس الخبيث فحملتم كلامي على التزوير وكذبوني هل  
تحسبوني مسلما بعد هذا ام انتم في شك من ذلك وما كان قولي ناشئا الا من صدق  
عقيدتي وبا حبذا لو كنا نجدهم ونشترك في اراقة دماهم واحمد الله لانكم جنم ورأيتم  
صدق قولي وارجو ان تعتقدوا بان مسلمي المنود لا ينوهون بباطل وزور كسائر  
الممال وخصوصا اذا اقمسوا لانهم اذا كذبوا وقتنا من الاوقات على سبيل المصلحة  
فلا يكذبون اذا خافوا قط »

لا بسوغ للمطالع ان يبدئي ملاحظة على ذلك النسم ولا ان يلوم القبليان فانه  
كان صادقا في قوله وحظوه لانا كنا مخفيين لا برانا احد ومع ذلك فهم لم يعتمدوا على  
قوله وانتصوا سيوفهم وطفقوا يتفحصون تحت الاسرة باسنة بناذهم مثل عمال الكمرك اذا  
ارادوا تفحص بعض الاحمال واموال التجارة والامتعة التي منع مرورها فاصابتني  
حينئذ ظبة سيف مزقت اهاب ساعدي فما تنفست من الخوف فاضطرب محمد وخاف  
ان لا نصبر وصاح قائلا « رأيت هولاء الكلاب في ساحة الدار فعليكم بتعنيهم »  
ولما سمعوا خرجوا من الغرفة بعجلة وتبعهم القبليان واغلق الباب علينا وهو يقول  
« احمقوا يا اخواني عسانا ان نظفرهم وننوفق اليقتلهم ونستريح » فاخرجهم من البيت  
بهذه الحيلة ثم عاد واتقدنا من هذا الحبس الوقي



## الفصل الرابع عشر

### \* الجوع \*

ولما اطمانت خواطرننا وعاد البنا السكون اضطربت فينا نار الجوع وقلنا له ان سلطنا من آفة الثورة والشغب سخرق بشواظ السغب وبتنرسنا الجوع وقد انشب اظفاره في اعصابنا وعروقنا . ان كنت لا تمتطع الاتيان بالخبز والاطعمة فانتا بشيء من الارز فاننا اشرفنا على الهلاك . فاجابنا لا اقدر على تحصيل قوت لكم الا عند وقوع الظلمة فقد دعيت اليوم مرتين الى محكمة الاستنطاق وحاكومي من اجلكم اشد المحاكمة وقالوا انبئنا عن اربابك الذين كنت عندهم ابن تواروا وفي اي الزوايا اخنفتوا وان لم تنطق بصدق صلبناك فاجنهم باني لا اعلم لهم ما متنا كنت معهم في اول الهياج ورافقتهم الى درب دهلي ثم فارقتهم من ذلك الوقت ولا ادرى الان هل هم من الاحياء ام الاموات . وقد امر السلطان بالمنادي فنادى في الاسواق والمعابر بان يجس الاهالي مضايقي الدور وشعابها وخاليها واهلها ويتنصوا كل مرداء وشجرا شبرا شبرا ويقتلوا من وجدوه وبأ تولى برؤسهم لاخذ الجوائز المعينة فجايزة رؤوس الرجال ثلاثمائة روية ورؤوس النسوان مئتان وخمسون روية والاطفال مئتا روية

فتولانا من استماع هذا الخبر رعب شديد انهالت له دموعنا وارنعتت ابداننا فندم النبيلان من اظهار اطلاعاته فاراد تسكين قلقنا وقال « لا تياسوا لما سمعتموه ان الهنود وان تغلبوا على دهلي وقتلوا من فيها فهم لا يظفرون ببقية العساكر ومن الامور المسلمة انهم سيجتمعون ويدخلون دهلي بسطوة وبطش ويستعدون للانتقام واعلموا اني لا افارقكم ما دمت في قيد الحياة الا ان اقتل وصاحب هذا البيت علي من احبائي وهو يعلم سرا انكم في بيتي لكنه لا يسعى في اظهار ذلك حسب المعاهدة وهو يخاهل ويرى اكرامكم من فرائض الانسانية وقد لاقاني صباح هذا اليوم وقال اني آويت اربابك الى هذا المحين وبالنظر الى المودة القائمة بيني وبينك . اذنت لهم ان يجننوا في بيتي الى انقضاء ثمانين واربعين ساعة ثم لا اقدر على ابولائهم اكثر من ذلك

فابحث لم عن ما من آخر . واقول لكم لا تخافوا ارجوان اعين لكم ما مئنا احسن  
من هذا « ذهب الفيلبان وقرب اليوم من الاختتام وحنمت الشمس للغروب فقد  
الظلام رواقه ونحن في اضطراب لا نجد وقلنا لانعد

اما آكن فقد سقطت من الصبح ولا تزال الى الآن كأنها مينة لا تتكلم ولا تتحرك  
ابداً ولكنها تن وتقول بصوتها الضئيل احترق بارود خانه . اما هذا الطفل فقد  
تغشاها الكرى . وهانان الامرانان كانتا غريقتين في بحر الانين من عارضة المحسى التي  
نشأت من كثرة الجراح . وانا وزوجي كنا في أسوأ الاحوال فانه كان يخطر في  
الغرفة وهو يحسب المشي كما يكون داعياً لزيادة شهوة الطعام في اوقات السعادة يمكن  
ان يكون سبباً لسد الجوع عند التعاسة وسوء النجث

اما انا فلم اكن فيلسوفة كزوجي فقد كان بطني طاوياً وراسي عارياً فنارة  
استلقي واخرى اتناوم واتذكر ابني واتحسر على فقدي اباه فاضرت بي سورة  
الجوع بحيث نسبت شمائل ابني واتحى شكلها من لوح خاطري وكلما اردت  
تصور صورته ما تمكنت منه . نعم ان خصال الانسانية وخصائص البشرية والقوى  
المدركة تجاور البشر وتلازم الدماغ الى وقت محدود ومدة معينة على ان  
لا يكون الانسان مهجوراً من حاجياته الضرورية ومقتضياته الحتمية اما اذا مسه  
ضرر وانجلي ببلية فتزول حواسه الباطنية ويرتكب انواع الرذائل ويخرج عن ذاته  
ويبتزع من جنسيته فاذا فاته طعام يومه او لم يقدر على استيفائه نوموه نسي عشرينه  
واقوامه . وافرأه . وارجامه . ينكر صبيته وحميمته ويحنو صبره وندمته . ويقول  
بعضهم ان المحتضر يبكي في حالة اغماؤه وعشوته ويعتقدون ان بكاءه للمرافقة الاحباب  
والتعلمات الدنيوية . فان ذلك ليس عندي بشيء مقبول وان كان لم يرجع احد من  
الاموات ليخبرنا من عالم الاحتضار فنطلع على كيفية افتراق الارواح من الابدان  
وتقف على سبب هذا البكاء لكن عندي ان بكاء المحتضر ليس من قبيل تأثر النفساني  
على قطع علائق نفسه الصعبة بل هو يبكي على نفسه عند حلوله في رموه لانه ذاهب  
من عالم نوراني الى عالم ظلامي ولا يعلم ما يأتي عليه هناك

ويخطر ببالي اني تمت من مقامي وقتلته وشهقت شهقة ووقعت معشياً علي واظن  
اني تحنرت للنيام فارتعدت رجلي وحصل في راسي دوار فسقطت فجاء زوجي وقعد

عندي ووضع راسي على ركبتيه وكان ينظر اليّ بهلامح المحسرة وما زال يلاطمني حتى افقت من سقوط فطرات دموعه على وجهي والجوع على حالته الاولى ففوتني حناوته . ولما رأيت بهذه الحالة نادى باعلى صوته ابن انت يا محمد لم لا تنجي . ثم ادخل يديه في جيبه واخرج منه ذهباً كثيراً وقام يتردد في الغرفة نردد باز قصت اجنحة او اسد غضبان لا يقدر على الخروج من عرينه يصبح ويقول من يأتي بكف من ارز اعطينه هذه الليرات . فلما اضطر فتح باب الغرفة وخرج الى الناعة فنادته ابن تذهب وقت لا منعه من قصه فما مشيت بضع اقدام الآ وسقطت من الضعف . وما طالت مدة خروجه عن ست دقائق لكنني تصورتها اطول من ست سنين فلما دخل رأيت قد عطف ذبل ثوبه وهو مملوء من البورتيقان والامثار الهندية فوضعها عندي وقال لا تفعدني في حالة الانتظار اكثر من هذا واصرفي شيئاً ما حضر عني ان ينسد جوعك . اما انا فلم اكن مستحقة لهذه الضيافة وحدي فان للاخرين ايضاً حقاً فيه فدعوت تينك الضعيفتين للاكل فاجابتا . وما قبلت آكن اكل شيء ابداً وكان الطفل نائماً فحفظنا حصنه ونعشنا بتلك الفواكه وبتنا حتى انتشرت اعلام الصبح في اقطار الافق فما جاء محمد هذا اليوم الى ان مضت الساعات وجان الميقات

ابن النبلبان يا ترى ابن ذلك الرجل الوفي هل هو محبوس ام عارضة معارض لاجلنا ام حدثت حادثة منعه من مجيئه . كانت وساوسنا تزداد شيئاً بعد شيء حتى غرقت الآفاق في امواج الظلمة فنهض زوجي لتحصيل الناكهة واحضر مقداراً كثيراً من الامثار مع عذ حبوب فرثنا بها فتق الجوع وسددنا ثلثه وهذا الطفل ابى اكل الناكهة وطلب منا الارز المطبوخ فوعدته بتحصيل مطلوبه في اليوم الآتي فصكت واستمر في نومه . ما رأيت في مدة عمري طفلاً حارباً على النوم مثله فانه نام ثلاثة ايام على الاتصال . وبعد هذا نام زوجي ونامت الامراتان الآ انا فاني حاولت النوم مراراً فلم اقدر كافي على شوك الفناد وكنت اسمع خشخشة اثواب آكن حين قيامها وعودها فعلمت ايضاً انها سهرانه مثلي انا وبتتي كنا مبتلين بالوساوس الباطلة اما هي فقد كانت تصور الحالة الحالية واما انا فكنت اتصور مآل الامر ومنتهى العمل . اسلي نفسي بان عما كر الانكليز

فتحوا دهلي وقرروا فيها نظامها السابق ونحن مشغولون بتريم عمارتنا وتعميرها وصهري  
نال الجوائز والوسامات لاجل الشجاعة التي ابرزها في المحاربات وانا اتمنا امر تزويج  
آكن باحتفال شائق واني قعدت مع زوجي وطفلي وبل في باخرة انكليزية لنذهب الى  
لوندرة ونريد بعد الوصول ان نضع وادنا العزيز في احدى المكاتب الاعدادية  
ليشغل بقراءة مبادئ العلم ثم نرسله الى المكاتب الفنية لتعلم الصنائع والمعارف .  
والخلاصة اني كنت غريقة في ليج هذه الامال انصور سعادتي الموهومة حتى مضى  
هزيع من الليل

واذا بصوت خفيف سمعته من ساحة الدار فاصحيت فسمعت آتيا من الباب فلم  
اقدر على الجواب فتكرر دق الباب ثم فتح بعد حركة قليلة وطرق الطارق فما سمعت  
الا وقع الاقدام فوق رمال الناعة بين السامع تعدد القادمين ففربوا منا حتى  
وصلوا باب الغرفة وقرعوه بسكون وخفة فقلت لزوجي ما العمل حينئذ فقال لا بد من  
فتح الباب فان هؤلاء القادمين لو كانوا من الاشرار ما دخلوا الدار بهذه الخفة  
والسكينة ففتحنا الباب واذا بهندينين قد تلغنا بلقاع ايض واسدلنا القناع دخلنا  
الغرفة ثم جلست واحدة منها في وسط الغرفة واخرجت من تحت ابطها سلة من السلال  
المعدة لوضع الالبسة واخرجت منها ملحمة من الملاحف التي نلتحف بها نساء الهنود عند  
خروجهن من البيوت وقالت لنا قوموا والتحفوا بالملاحف وارندوا بها فوق ثيابكم  
وانبعوني فساها زوجي الى ابن تتبعك قالت الى المحل الذي ينتظركم محمد التيلبان  
فيو . فلما سمعنا اسمه زالت وحشتنا فقمنا والتحفنا بها وقفونا اثرها وما زلنا نمشي حتى  
بلغنا الجادة الكبيرة الواقعة في وسط دهلي فوجدنا نراها مضجعا بالدماء بحيث لا تقدر  
الرياح الهوج عند هبوبها على اثاره ذرة منه وما رأينا في طول طريقنا الا غربانا  
ونسورا نفع على جيش القتلى وتشتغل باكلها واخضطاف الامعاء والاحشاء منها .  
وكلابا نمت من كثرة الاطعمة قوة البخل والمنازعة وانتقت مع امثالها بكال الالفه  
في تقسيم الاجساد . وشاهدنا ابناء وطننا كغشاء طاف على سبل جارفي او كرماد  
اشتدت به الريح في يوم عاصف

كنا مجدين في السير حتى رقت حاشية الظلماء واوشك صبغ الليل ان يحول  
فخرجت الاهدان من منازلهم وانتشروا لاداء الصلاة ولقيام العبادات مثنى وثلاث

ورباع وكان مسلمو الاهداء وعبدة الاوثان يتصدون نهر جينا للاغتسال والتطهير  
وما كانت النرقنان ملتفتين اليها وقصدها بعد اداء الفريضة ان يتفقدوا اسلحتهم  
ثانيةً ويتفقدوا المساكن والمعاهد والزوايا والمشاهد . ليقتلوا الذين يظنرون  
بهم من الافرنج

## الفصل الخامس عشر

### ❖ المرور من امام المسجد ❖

وكانت دليتنا تقول عجلوا وما زلنا نسري حتى وصلنا الى شجرة عظيمة الساق  
قد احاطت اغصانها بقاعة بيت في وسطها واطلت ما تحتها وشاهدنا جمعا كثيرا  
من الهنود والحراس قد جلسوا امام مسجد في محاذة هذه الشجرة الضخمة . وعلينا الان  
ان نعبّر من مجبوحة هذا الجمع فان الطريق منحصر هناك والعبور مستحيل من بين الف  
نهر من غير ان يعرفونا . فقلنا لنهك هنا حتى يتحرك النوج ( النرفة ) من مكانه ونمر  
سالمين فقالت الهندية « النجاس عنة من ابنا ووطنكم الى هذا المسجد فحاصروم في هذا  
المقام الى العصر حتى ظفروا بهم وقتلوهم وكانوا يريدون الذهاب الى درب كابل بعد  
طلوع الشمس للمقاتلة مع بقايا الانكليز المجتمعين هناك »

فيالسناعة الامر واشتداد الخطب قد تقاص الليل ونحن في هذه الحالة ثيابنا قصيرة  
جدا لا نستراقداننا والاشرار يعرفوننا بمجرد رؤبة الالبسة الافرنجية . وفي اي حال  
النجائنا الى ساق هذه الشجرة ننتظر وقوع النضا . فالتفت بعد مرور بضع دقائق الى  
الكساء الابيض الذي على رأسي فاذا هو قد احمر من نقاط الدم . من اين تنفاطر  
الدماء با ترى ليس عضو من اعضائي مجروحاً بنزف منه الدم على ملحتي . ثم فهمت  
ان الدم يتفطر من فوق رأسي فرفعت رأسي ورأيت رؤوس الانكليز معلقة على اغصان  
تلك الشجرة تشعب دماً . فتهقرت من مقامى بضع اقدام عسى ان ينقطع ترشح الدم فلم يجد  
ذلك نفعاً لان الاغصان كانت كلها حاملة رؤوساً واجساداً . وقد بلغني بعد ذلك

ان نادرشاه الفارسي غزا تلك البلاد منذ ١١٩ سنة وزحف على الهند بجيش جرار  
 فتغلب عليها وقتل امراء محمد شاه سلطان دهلي وعلق رؤوسهم باغصان تلك الشجرة  
 فابقيت لنا حالة سكون وقد زلت اقدامنا وارتعشت ابداننا من هول هذا  
 المنظر . وفي اثناء ذلك نفع الاشرار بالابواق وضربوا طبول المسير فلم يكن كالمج  
 البصر حتى نحركوا الى درب كابل وخلقوا الطريق للعاير . ولما خلت الجادة اخذنا  
 طريقنا وانطلقنا وبعد برهة دخلنا زقاقاً في غابة السكون وبعد ان قطعنا مسافة مررنا  
 بمغازن حطب فسأل زوجي الهندية هل تتوقف هنا فما اجابته ولكنها انحنت وتناولت  
 حزمة من الاخشاب المطروحة في ذلك الموضع فظهر زقاق آخر فاشارت بالدخول  
 فدخلنا ومشينا طويلاً بمشقة كثيرة في هذا الطريق الضيق المظلم بما فيه من الحفر  
 التي كانت تعيق مشينا ونصعبه حتى دخلنا سقينة كهنة العقاب مضيئة بمشاعل من خشب  
 وهذا الخشب خاص في الهند بالاسضاء بما فيه من المادة الذهبية التي تنوقد كالشمعة  
 وكان الدخان المتصاعد من هذا المصباح الخشبي قد اظلم النضاء اكثر من انارتو .  
 وما استفاد اهل هذه السقينة من دخولنا عليهم لانهم استقبلونا بالانين والحنين وتلقونا  
 بالاشمئزاز فتبادلنا وايام كلييات انكليزية كانت سبباً لسكون خواطرننا . واستأنسنا  
 من النار حيث علمنا ان المختفين في هذه الزاوية الهائلة ايضاً مثلنا في الابتلاء  
 بالبلايا . ثم اطعموا على حالنا واننا التجأنا الى ما منهم خوفاً من السيوف البواتر المسلوطة  
 لاراقة دماننا . وكان هؤلاء الجماعة المجمعون هنا كلهم من الانكليز اجارهم في هذا الموضع  
 رجل من المحوس ترحماً لهم ورعاية لحقوق الانسانية مع المخاطرات التي تصيبه من ابيوتهم  
 اذا اطع الهنود على ذلك وهاته السقينة واقعة خلف بيتو . اما هؤلاء النعماء  
 المتجنون الى هذا المأمن فقد كانوا حنفاء الرؤوس عراة الابدان كأنهم زجوا في  
 اعماق السجون وهم اكثر من عشرين نفرآ . وشاهدت بين النسوان امرأة في حجرها طفل  
 رضيع ترضعه فجلست بجانبها وتذكرت ابي عند رؤيتو وتاوهت تآوهاً شديداً بنهاية  
 الفخر والناهف وقلت ما على زماني لو جمع بيني وبين قرع عيني ومهجة فؤادي فنظرت  
 هذه الضعيفة في وجهي وقالت « ما هذا التهنيد الذي يدل على تاثر في النفس عظيم  
 هل قتل ابك ام فقدتو لم تنظرين الى طفلي مختصرة »  
 فما قدرت على اجابتها ثم جلست بيني مع هذا الطفل عندي وجلست تانك

الضعيفتان في زاوية من الزوايا ففرّ بنا الفرار الأزوجي فانه كان قائماً في وسط  
النضاء مطرقاً برأسه الى الارض كأنه ارتكب جنابة فاستحق الناديب او تصدى لامر  
فظيع يمسح جبين الخجل لاجلوه . وكان انفعاله لاخفافه عندنا وهو يريد اللحاق برجال  
انكثره للمشاركة في التنال وكنت افحص اطراف السيفنة المظلمة واوقف الاطفال  
النائمة لعلي اجد طفلي هناك وما زلت على ذلك حتى اثبت عليهم واحداً بعد واحد وما  
وقعت . ثم على عين ولا أثر . وحينئذ وجدنا واحدة من الخواتين الانكليزية كانت لها  
نسبة مع اقرباء هذا الطفل الذي كان عندنا فعرفناه ونعمدته بحفاظته وخلصنا من  
قيد حراسته ووجدت نائك الضعيفتان نسوة من رفيقاتها فانصلنا بها وما ودعنا  
حين المفارقة

ما اصدق الحكماء في قولهم حيث قالوا « الانسان يتلي بالكبر والخيلاء في وقتين  
من الاوقات . وفي حالتين من الحالات . الاولى حين يرفل في نيل المني .  
وييس في ذيل الغنى . والثاني حين يكابد التوائب . ويعالج سكرات المصابب »  
فاعتراني من هذه المفارقة ارتياح ووحدة ووجدت في هذه الوحدة طائفة لاننا نحمل  
بعد ذلك اعباء مصائبنا الخصوصية ولا تعمل مشقات الآخرين وتكون تدابيرنا  
مصروفة الى انقاذ نفوسنا من لجاج البلايا ولا تكون غصص الناس زائدة على  
هؤمنا فتفرغ للتخلص من حضيض تعاسنا الحاضرة ودفع صدماتنا الآتية  
رأيت في احدي الزوايا شيئاً كثيراً من النباتات اليابسة والعاف فانكأت عليها  
فكانت مضجعاً رطباً احسن للاستراحة من القوت التي كانت في بيت ذلك  
المسلم الهندي صاحبنا بالامس . ما اهنأ هذه الفرصة واحلاها لو دامت خالية  
من الاضطراب ولكن خواطرننا استجبت من التلق وقنياً ونحن ننكر في امر الفيلبان  
ونجبل قداح الافكار في علة غيابها وسبب مفارقتها فان آمالنا كانت مرتبطة بارادته  
منوطة برأيه وترداد حسراتنا لحة بعد لحة من فقدنا العزيز فاطهرت لزوجي قلتي على  
محمد فقال وهو يريد اسكاتي « اعلمي ان هاتين الهنديتين جائنا معنا الى هذا  
المكان ولما اطمئنتنا من مامننا رجعتا لتعبنا محمداً بحضورنا هنا وسجتي . بعد برهة  
ونقر عيوننا بهلاقاته »

## الفصل السادس عشر

### \* ضرورة الترتيب في الاعمال \*

وعلى الانسان ان يشكر احسان المحسن الذي ينفق احواله عند نزول الملمات وحدث النانات . هذا الرجل المجوسي الذي حقن دماءنا خدمه للعالم الانساني وحفظنا من التهلكة كان يطعم اضيافه في كل يوم وليلة مرتين وكانت خدمته ثابتا بقدرين من الارز المطبوخ واللحم المشوي وثلاث اوان كبيرة مملوءة بالماء ويجرد وضعا على الارض كان رفاقنا يهجمون على الطعام فيدخلون ايديهم في القدر الى المرافق ويبلعون العظم واللحم كائنا ما كان من شدة الجوع وسورته وكانت فعلتهم هذه داعية الى الاجحاف وعدم الانصاف فلما شاهد زوجي هذه الفاعلة النتيجة قام حينئذ متصباً وقال « كما ان الترتيب في الامور البشرية من اللوازم الضرورية في السعادة واوقات الرفاهية فهو ايضاً من اهم اللوازم في النذل والمسكنة والناس يحتاجون الى النظام في حالتي الشدة والرخاء والمتدنون لا يتركون رسوم الاداب وشؤون التربية سواء كانوا في ذروة جبال الاقبال او مصنفين في الاغلال . يراعون شروط المواخاة والمواثاة . وينسون الظلم والمعاداة . وانتم ايها الحاضرون لكل واحد منكم حق معين في هذا الطعام وكلكم في هذا الماء كقول والمشروب مسبوون . فليكن واحد منا رئيساً يقسم الاطعمة ويفرقها فيأخذ كل ذي حق حقه ويعتدل الامر »

فسوا زوجي بكل شفة ولسان الأجماعة ولكنهم اقاموه رئيساً فانتفى قطعته من عودان الشجر واخرج سكينه وجعل واحداً منها محدد الرأس كالشوكة والثاني شبيهاً بالمعلقة واستعان بهما على مقصوده . كان يخرج الارز من القدر ويضعه في أكف الحضار التي كانت بمنزلة الاواني ثم يخرج اللحم ويضعه فوق الارز بترتيب . طال تعيشنا على هذه الصورة ثلاثة ايام . وعمل زوجي وان كان لم يوافق اراء الحاضرين في اول الامر لكن استحسنه الجميع في اليوم الثاني والثالث . وذلك شأن قوانين العدالة فانها يصعب اجراؤها في اول الامر وتأنف النفوس قبولها



في مبادي نشرها لكنها اذا اجريت وسلكت طريقها لا تنفسي برهة الا وتأتي  
بشمرات حلوة ونتائج حسنة ينتفع الناس بها وتقبلها الطبائع بارتياح والقانون رائد  
الام ومصباح نهاها . وقد احدث ذلك بيننا وبين اولئك الرفاق نوعاً من  
الانس والالفة وفتح طريق الارتباط والاختلاط وانحلت عقد الكروب عن  
القلوب فاحكى كل منا حكايته لصاحبه بجرقة قلب ونوجع فما كان في هذا المجمع  
رجل او امرأة لم تصبها سائحة من السوايح . فان الثورة حين اشتدادها في اليوم  
الحادي عشر والثاني عشر تمكنت من هؤلاء النعماء فذهبت بابائهم وازواجهم  
وابنائهم واذاقهم من الفظائع شيئاً كثيراً . ومن الغرائب ان اكثر المجمعين  
هنا نسوان وما كان فيهم الا رجال قليلون فسالناهن عن ذلك فقلن ان محتسب  
دهلي دخل هذا الموضع قبل وصولنا بساعين واخرج الرجال وقتلهم وابقى عليهم  
وما كان ابقاؤه هذا من ترحمه ومرورته لانه كان من المدبرين ودهاة العمال  
فما ابقي على اولئك النعماء الا للابتغاء منهن لياخذ فدية مهية من الانكليز عند  
رد زوجاتهم وبناتهم بعد المصالحة وهذا هو السبب الاصيل لعملي

وبناء على ذلك علمنا ان نيران التفتة سحمت بعد اضطرارها او شرعت في  
الانطفاء قليلاً من اليوم الخامس عشر والسادس عشر . وكان الهنود لا يباشرون  
قتل النساء ولا يتعرضون لمن واغلب هؤلاء النسوان من اللواتي قتل ازواجهن  
بسيوف الاشرار واطلقت الهنود من غير ان يلحق بهن ضرر وفي اعتقادي ان  
الموت اذن من حياة على هذه الصورة وان الاشرار ما يقول على نفوسهن الا تكبلاً  
للمصيبة لينحن ويندين مدي عمرهن ولو قتلن لكان ارواح لمن

اما الرجال الذين اخرجوا من هذا المكان وقتلوا فاليك شرح حالهم . لما اخذم  
المحتسب ذهب بهم الى عمارة عالية من ابنة السلاطين الكوركانية على شكل محكمة  
عسكرية واستنطقهم على الاختصار ثم حكم بصلبهم بعد ان اقام عليهم الحجبة  
واطلعنا بعد هذا على اعلان نشره ذلك الشقي مضبوته « لما نبأ سلطاننا المنتدر  
المعظم سرير الملك وجلس على تخت اجداده العظام المعروف بتخت طاوس بعد دفع  
الانكليز ورفع اشيائهم الا فرنج صدرت احكامه العلية من مصدر الجلالة الشاهانية  
بان لا يقتل احد نتماً من الانكليز ولا يشن رعاياه الغارة على اموالهم بل يحافظوا

على اغراضهم وصدور الاحكام بعد هذا التاريخ منوط بالاستنطاق . مر بوط بجبال  
العدالة بري من الاعساف « ومن الحوادث التي سمعنا اليوم ان جمعا من اعظم الرجال  
النجا والى عارة السلطان في اليوم الثاني عشر فلم يقتلوا على النور لئلا يحمل ذلك على  
عدم النظام فاحضروهم في محكمة الجنابة ورتبوا مجلس شورى عسكرية واستنظفهم  
وانتقدوا عليهم انتقادا عنيقا ثم امروا يقتلهم جميعا . اما هذا السلطان الوفي الذي بناه  
عمر الثانية والتمهين فقد كان اسما بلا رسم وكانت السلطنة مخصصة بابو المسمى  
ميرزا مغول وكان غشوما سفاكا محبا لاقتحام الحروب والمغازي . وهذا المنسب  
من الهنود نصبتة دولة انكثرت هذه الخدمة فعند وقوع الثورة نواطوا وابتاء وطبو  
على زيادة الاستبداد . وكان يخرج بحكم الميرزا مغول الى المتوارين في الزوايا  
ويعرض عليهم الاسلام فاذا قبلوا نجوا واذا اجمعوا قتلوا . وتذكر بله الاسف ان  
عددا غنيرا من ابنا وطبنا قبلوا هذا التغيير ودخلوا حوزة الاسلام وبدلوا دينهم  
القديم . ولو بقوا على طريقهم غير خائنين من الموت لارتفعت منزلتهم عند  
طلاب الحقائق

اقمنا في هذا الموضع خمسة ايام متوالية وازدادت تعاسقنا من وسخ الابدان وعنونة  
الهواء وعظمت مصايينا من تحمل هذا البلاء العظيم في هذه السفينة الجهنمية  
ونسلمت على ثيابنا البلى من حرارتها المنهضة بحيث كانت تشرق وتسقط فيها لها  
من هوة ما اضيفها واحرجها وورطة ما اصعبها واشتها . وكانت عندنا نقود كثيرة  
فاردنا ان نعرض على الخدمة قدرنا منها لا يتباع ملابس نستر ابداننا العارية ولم  
نجترئ على اظهار ذلك خوفا من ان يطعموا في اختلاس الوجوه فيقتلونا . هذا  
وزادت مسرتي من جهة بنتي آكن لانها خرجت من سكوتها الدائم ونومها العميق  
وحصلت لها افافة من حالة الخمود بامداد القوى الغريزية وشرعت تبكي وتذكر  
زوجها فشكرت الله تعالى لانه نجى بنتي من خطر الهلاك والاختناق والموت  
بعارضة السكنة واخذنا مع ذلك تنفكر في طريق الخلاص من تلك الهوة بانفاق ارائنا  
ودلالة عقولنا . والذي اقول هنا في حق هذه البنت ليس من جهة علاقة الامهات  
بالاولاد ووفور الحب القلبي الذي جبلت عليه في حقها ولا ما اشتهر في الامثال  
ان حب الشيء يعي ويصم ولكننا لو تأملنا تأملا دقيقا مع الانصاف لوجدناها

مع حدثنة سنها ذكية داهية واسعة الصدر جريئة في التدبير عند الابتلاء بالحوادث  
ماهرة في القيام بفرائض التخلّص بحزم وإمضاء عزم . ولولا انها كانت مبتلية بمكابدة  
شدائد التوائب وتحمل اعباء مفارقة زوجها لاجالت قداح التدبير في انقاذها .  
كما انها لما فرغت من البكاء والنأم صدع قلبها وسكن اضطرابها الداخلي ابتدأت  
بالمشاورة معي ومع ابيها في الفرار فتضاربت اراؤنا في هذا الباب لصعوبة  
موضوعه وامتنه

فقلت « ان الابق بنا الترحال من هذه الزاوية المكننة بالاخطار اذ لا ثقة  
بما اقدم عليه البعض من الظنون والحسبان ولا يبعد ان يدخل الحسب هنا مرة  
اخرى وان سلما نحن النسوان لا يسلم ابي بل يقتل مع هؤلاء الرجال وما كل من  
تعلم الحجرة وقد قيل لا تعلم تفمك للتهلكة وانت قادر على انقاذها وانا ان  
تأهب للفرار بوسيلة » . فقال زوجي « انا من الامس الى الآن ما زلت افكر في  
ذلك وقد تطابقت عقيدة بنتي مع عقيدتي واني عازم على الفرار متى ارشى الليل  
سدولة واذهب الى دارنا المخروبة وانا على يقين ان الاهد ما تركوا فيها شيئاً يصلح  
لسد احتياجنا ومع ذلك يجنب ان التي شيئاً من لوازم المعيشة واسافر من دهلي  
الى مدينة اكبر اباد باي طريق كان » . فاجابته آكن « هذا رأي صائب لا يرد عليه  
قط لكن ما الداعي للمفارقة بيننا هل يترتب على اتفاننا في السر ضرر » فرأيت رايها  
صواباً وقلت « لقد نظفت آكن ؛ ا فيه صلاح حالنا ونجاح قصدنا اي سبب يدعو الى  
مفرك وحدك بل نحن نوافقك في السبيل ونرافقك في السراء والضراء فاذا كان  
الطريق خالياً من المخاوف عبرناه سالمين وان ابتلينا بمحادثة كنا في موضع واحد وذلك  
احسن من تفرقنا وبقائنا في ورطة الانظار »

## الفصل السابع عشر

### ❖ موت الفيبيان ❖

قال زوجي واطن الفيبيان ذهب الى دارنا ينتظر رجوعنا وقالت آكن

من ابن علم ان ويليام ليس فيها وقد رأيت البارحة في نومي ما يدل تعيينه على  
 اننا سنلتقي به وانني سأتمتع برويته عن قريب واسأله تعالى ان يكون ما رأيت  
 خيراً . فقلت اذا كان بناء الامر على التفاؤل والاستبشار بالخيال فلم لا اتناول  
 بمستقبل ايامي انا ايضاً وانصور ان ابني فيها وانني سانبين بهلال مجيء . وخلاصة  
 الكلام انا سكتنا خوفاً من اطلاع الحاضرين على مقاصدنا وفوضنا امرنا الى  
 التدبير وجلسنا نتنظر ما تلد ليلتنا الحيلى بانواع المصائب . فما انفقت على ذلك  
 ساعة الا وظهرت الهندية التي دللنا على هذا المكان فتمت من مجلسي وقبضت على  
 ساعدها وسألتها هل عندك خبر عن الفيلبان ابن هو . والعادة في اولئك الهنديات  
 اللواتي يخدمن الانكليز ان يتعلمن عدة كلمات من اللغة الانكليزية لبيان المطلب  
 الضروري اثناء المعاشرة لكنهن اذا اتفق لهن كلام طويل او وقعن في بيان مهم  
 لا يقدرن على تادية المراد وشرح المقصود . فاشارت الهندية بيديها ان الاشرار سلبوا  
 الفيلبان وقتلوه . ما اغرب حالة الانمان وما اعجبها فان المرء يطلب سلامة نفسه  
 في اوقات الادبار اكثر من اوقات السعادة واني اقول ذلك مع غاية التخل  
 اني تأملت من موت هذا الرجل بقدرنا لي من النتيجة التي ترنتت على ذلك . فان هذا  
 الرجل الصديق اوفى بعهوده وراعى حقوق النعمة وشروط الوفاء . والتي نتمنى  
 لاجلنا في الموارد الهائلة حتى ادركه الاجل المعلوم واستوفى مداه المعلوم

اما الآن فلا يجدي التأسف والتخسر نفعاً وقد صار عدماً لا ينفع . وفي اثناء ذلك  
 نظرت الهندية الى ما حولها واومأت ان تتبعها في الخروج بدون توقف او توان  
 فخرجنا معها من مدخل ذلك الزقاق المظلم ودخلنا الشارع العام وفارقنا بهذا  
 الوضع رفقاءنا القدماء واعتزني من تلك المفارقة غصة باطنية تاثرت منها .  
 لكننا كنا مجبورين ان نفارقهم اذ لا يجوز لاحد ان يطالع رفيقه على قصد في هذه الحالة .  
 تصوروا ايها المطالعون سنيمة تقاذفتها الامواج وهي تمخرني وسط بحر هائج  
 هبت عليها ريج عاصفة مزقت شراعها وانخرقت اجزاؤها والطوفان بزداد  
 شيئاً فشيئاً حتى اصحبت على وشك الغرق يخدر بسكانها الموج الى مهاوي البلايا  
 ويدبرها نوتي ضعيف عجز عن اتقاذها . وهي مع ذلك محاطة بكثير من سنن  
 الاعداء القوية فلا تعلم كيف تخرج من المخاطر سالمة . وقد انحصرت طرق الفرار

بزورق صغير لا يسع أكثر من ثلاثة اشخاص الى ساحل الحجارة . وهل يمكن والحالة  
هذه ان يلاحظ احد حقوق الانسانية وبراغمي مراسم التمدن والمروءة . ان للمسافر بن  
ان يعجلوا في ركوب الزورق لينجوا بنفوسهم باي تدبير كان ومن تقدم وتنبؤ كان  
اعلمهم . هن حالتنا التي نشاهدونها ولو اطلع رفقائونا على مقصودنا لخالوا بيننا وبين  
المراد وسدوا سبل فرارنا وذهبت تدابيرنا هباء منثوراً

فجدد هواء المعبر قوانا واستنشقتنا منه مارداً علينا الحواس واذهب مضرات  
الاهوية العفنة التي ابتلينا بها في تلك السفينة وكنا كهيئة يخرج من القبر ويكثر  
وجده وشعنه في حياته الجديدة . وما زلنا نجد في السرى في اثر الهندية حتى وصلنا  
كوخاً صغيراً فصارت بصوت اليوم واجابها صوت مشابه له على النور وظهر على  
اثر ذلك اربعة اشخاص من خلف الجدار واستقبلونا وهم باللبسة الطويلة البيضاء .  
ونظراً لكثرة ما عانيت من المصاعب وقاسيت من النوائب والتجارب ايام نعاستي  
وابتلائي ببوائق الزمان ولمارة ما ذقت من كؤوس الايام مدى عمري وطول حياتي  
فيصح ان تكون اقوالي وافعالي قاعدة تدور عليها القواعد واصلاً تشتق منه الفروع  
ولذلك اقول ان الانسان كما يتنبأ بالانقلاب الذي يصيبه عند سعاده فهو كذلك  
يتنبأ به عند نعاسته كأن القلب يتأثر من وقوع الحوادث شيئاً فشيئاً فيعلم المرء  
بحدونها قبل ظهورها . ونحن لما شاهدنا هؤلاء الاشخاص القادمين اليها في ظلمة  
الليل حصل في قلوبنا ابتهاج فانفصل واحد منهم وجاءنا منفرداً فصحننا باعلى صوتنا  
هنا وبليام وظهرت على وجوهنا لوائح السرور وامارات الوجد والانشراح وابتهجنا  
بوابتهاج الساري بالقمر فيالها من فرحة سارة . فما لبثت بنبي ان قربت منه فتعاننا  
ونشاكيا ألم العجرا

لقد يجمع الله الشنبتين بعد ما بظن ان كل الظن ان لاتلاقيا

وترقرقت حينئذ دموعها في عينيها وما قدرت على استنباه ما عندها من لواعج  
الاشقياق . نعم وبليام هذا هو الذي كنا نتصور انه احترق في بارودخانه او انه  
يخبط بدمه وهو الآن في صحة وسلامة واقف امامنا . ولكون الموقف غير مناسب  
لبسط الكلام في الحوادث الماضية . فقبضت آكن على يد زوجها وتقدمت فقال  
وبليام عندئذ عجلوا في قطع الطريق . فما قطعنا أكثر من الف قدم حتى انتهينا الى

محلة خالية وجدنا فيها اربعة ركائب مع اربعة من الخدمة كل منهم ممسك بزمام  
فتمسختنا صوامعها باشارة ويليام وركضناها ونركنا المشاة وسرنا لنتمس درب كل كونا .  
فلما وصلنا باب المدينة رأينا هناك رجلاً هندياً من مستخفي هذا الباب من احباء  
ويليام وكان ويليام قد خارج بشأنا فبجرد وصولنا فتح الهندي باب المدينة  
فخرجنا . وما وصلنا وسط الجسر الممدود فوق شعبة من نهر جمنا حتى ارتفعت من  
ورائنا اصوات البنادق ووقعت رصاصاتها حولنا . فقال صهري ابرز صديقي  
خبث طبيته وسوء فطرته فتح الباب واخرجنا ثم ارسل رصاصاته لتشييعنا ولكن  
الطاف الله حفظتنا وحسن القضاء وقانا وقطعنا الطريق سالمين

وفي اثناء الطريق اخبرنا ويليام بالحوادث التي جرت له اجمالاً وذلك انه لما  
نجا من الهلاك وانقذ نفسه بعد احتراق البارود خانه لحق باستحكام الجنرال كراو  
بعد جهد جهيد . وكانت العساكر المتوقفون فيه ينتظرون ورود نجدة برئاسة  
المردار الانكليزي المسمى ( بارنارد ) ولما وصل الى ذلك الاستحكام اطمانت  
قلوبنا . وكان يدخل المدينة في الليل متنكراً مع رجلين من الهنود كانا يسلكان معه  
طريق الصداقة للمقصود الزوايا والمسارب لكن مساعيه لم تجدي نفعا فاصبحت  
خالية من النوائد وقد كان ذلك ايام اخفائنا في السفينة . ولما بس من كوننا في  
دهلي عزم على الذهاب الى دارنا خارج المدينة كان رأيه هذا من الالهامات الغيبية  
فانه لما ذهب اليها وجد الفيلبان فيها يهيم لوانم سفرنا ويريد تخليصنا بتهميد  
وتدبير فاعلمه الفيلبان بما مننا وكان هذا الرجل الوفي قد هيا اسباب المسافرة  
من كل الجهات فاطلع الساكنون بجوار تلك الدار على نيتنا واخبروا المحتسب  
الشريف بقصد وقالوا ان هذا المنافع مع كوننا من الهنود يساعد اشخاصاً من الانكليز  
ويحتفظ بهم والآن يريد اخراجهم من دهلي خفية فالتى النبض على محمد بفتنة من  
غير سابقة علة او لاحقة خصومة وامر بصلبه فصلبه على اغصان شجرة ( نارون )  
في ساحة بيننا فيالها من شجرة طالما نهبنا ظلالها الوارفة ناعمين فاصبحت الآن  
عوناً على اعداء نفس زكية كان عليها جل اعتمادنا . وباليتنا كما مطهئين من الخواف  
لنستوفي حق البكاء . على هذا الرجل الذي قضى نحبه في خدمتنا . لكن يحول بيننا  
وبين قصدنا نورطنا في المهالك وما تركت حالة الدهشة موقفاً لمن الملاحظات

والتأثرات دلي ان البكاء حينئذ حتى دلي الاحياء لا الاموات  
ولا بد لي من ان اذكر هنا مثلاً من الحسد الذي جبلنا عليه نحن النسوان  
وورثناه من امنا حوا . جبلاً بعد جبل . وذلك ان صهري وبتني اتفقا في الطريق  
وكانت لهما في كل خلوة جلوة وفي كل خطوة خطوة . وفرت نواظر آلن بملافة  
زوجها وهي تبته الشوق وتمتفرق جهدها في بيان لاعج العجرات واستيهاب  
صباياها وكانا في نشاط وانسباط يتكلمان خفياً . ولا ينتظران اليانا الا طينياً .  
وكنت حين اخاطب صهري في قضية من القضايا قلما يعا بسؤالني لانه كان غريباً  
في بحر التلذذ بملافة زوجته متردداً في مبادئ العواطف نهاج حسدي واشتعلت  
نيرانه في خاطري حتى قلت يا ليتني مت بين يدي المنود ولم اشاهد هذه الشعنة من  
صهري في حق بتني اولم يكن لي المرح حتى ذر عليه الملح

## الفصل الثامن عشر

### ❖ الظلل الدارس والاشتر الطامس ❖

فندمت عندئذ واخذت ساعد و بليام اخذت شديدة من ثمة الغضب حتى تنبه  
قليلاً فسألته هل عندك خبر عن طفلي ودابته . فاجابني جواباً ملاً قلبي سروراً  
فاورقت من استماعه شجرة امالي وزالت غصتي وانثناً حسدي لان جوابه دلني على  
سعادتي حتى اردت تفهيم رجليو من غلبة الفرح

وذلك انه اجابني ان ابنك سالم عند دابته وها في بيتكم القدم ينتظران  
وصولكم فزالت آلامي ومعني ونسبت المشاق التي تحملتها في تلك الايام وبدلت هذه  
البشارة ضعني بالثورة وعادت الي صفت الملائكة وصنعت طوبقي وطفقت اليوم نفسي  
على ما فرط مني واستغفر الله فركضت فرسي وقد استطير فؤادي من الحبور واسرعت  
عساي ان ابلغ بيتنا قبلهم كافي طائر ينقض لروية افراخه . فازلت اقطع الطريق  
الى ان وصلت حوالي بيتنا وكانت لنا فبو عمارة عالية قبل وقوع الثورة عشنا فيها  
اعواماً عديدة بغضارة عيش وسعادة فلم أرفيها وقتئذ الا دماً واطلالاً . يا لهني على

تلك الدار العامرة التي لم يبق منها اليوم الا رسم دارس لعبت به عواصف البلايا  
واحاطت بها الوحشة بعد ما كانت آمنة بنوح مسك النعم من عرصاتها واسني  
على سعادتنا الماضية وجمعيننا التي حكم عليها الدهر الخوون بالفرق والشتات

وكنت اذا عثر فرسي باحجار تلك الاطلال حصل في قلبي تاثير عظيم . وكان  
الليل قد ارخى سدوله واخذت جذبة ملاقاة ابني العزيز بتلايب اشواقي وكنت من  
الجهة الأخرى نافرة من ملاحظة تلك الخرائب الدالة على تعاسنا اعنسف في الدخول  
والخروج وقد انظمت معالم تلك الدار فلم اقدر على تخيص مدخل فيها . فصرت  
اخبط خبط العشواء اقدم رجلاً وأخراً أخرى وليس فيها اثر من السكان ولا ضوء  
سراج ولا مسرب للضياء يستدل بها على من فيها . فابنيت بوحشة عظيمة ضاعفتها  
تلك الظلمة المحالكة . وكنت اعلمت باصرني في تلك الللال ذات اليمين وذات الشمال  
لعلني اجد علامة فلم ازد الا ضلالاً . فلما بسيت من الوقوف على مرادي اعلمت قوة  
سامعتي وحددت اذني عساي ان اسمع اصواتاً دالة على وجد متنفس هناك فاسمعت  
الا حركه الهوام فابنيت في مقامها باهتة لا ادري باي وسيلة اتوصل الي انبي وقره عيني  
وفيا انا في هن الحال واذا بزوجي وصهري وصلا وترجلا فترجلت انا ايضاً وربطنا  
افراسنا بالحبال فتقدمت انا وصهري ويليام على زوجي وبنتي واخذنا نقطع  
الطريق وصهري يهدينا واو كانت دارنا على حالتها الاولى لوصولنا الى المراد في اقرب  
وقت اما الآن وقد خربت هن الابنية الرفيعة ولم يبق فيها جدار ارتفاعه شبر ولا  
علامة يستدل بها على الامكنة الاصلية الا شجرة نارون العظيمة فانها كانت لا تزال  
قائمة في مقامها الاول من غير تغيير وقد تهدات اغصانها وانثرت اوراقها فملأت  
فضاء الدار . وكنا نمشي متلمسين نخاذر في وضع اقدامنا على الارض وتنفس  
بخوف لئلا يطلع هنود تلك الجهة على وجودنا

وخوفاً من الوقوع في حفرة او بتر اخذ بعضها بايدي البعض الآخر وما زلنا  
نذهب حتى وصلنا مركز دارنا ومحل سكننا القديم فلم نسمع الا هبوب الريح وحنيف  
الاوراق وانفريد الطيور وحركات الدواب الصغار بين الاحجار مع ما نسمعه عن  
بعد من نباح الكلاب والارانب . ولما قربنا من ساق شجرة نارون طرقت  
سمعنا انه حزين زادت وحشتنا لا سيما انا فان خوفاً كان اكثر من خوف الجميع .



فصوب زوجي وصهري مسدسها نحو الصوت وتأهباً للدفاع وكان ذلك الحين  
 آتياً من جثة عظيمة ثم رأينا شجراً كبيراً يقرب منا رويداً رويداً حتى وقف على  
 خمس اقدام فصاح ولبابم لا تخافوا هذا فيلنا ذلك الحيوان النهم يستقبلنا ويثن شوقاً  
 للملاقاة وأسناً لموت محمد . فقرب وحيي كل واحد منا بخرطومه فلاطفه زوجي  
 ومسح خرطومه بيده وقال له باللهجة الهندية « ما فعل هنا » فنارقتنا بغتة والصق جثته  
 بساق الشجرة ورفع خرطومه مشيراً الى جثة الفيليان . ونظراً للالفة التي كانت بين  
 هذا الحيوان وبين محمد فلما صلب على هذه الشجرة وهو يراه تحت الشجرة ظل يحن  
 ويثن ولا يترك جده طعمة للسباع . مضى لي كلام في مزايا الفيل وافول فوق ذلك  
 انه مع عظم جثته له شعور يناسب هيكله ويميزه اكثر من تمييز سائر الحيوانات يدرك  
 الخير والشر ويعرف الحب والبغض ولا ينسى اللطيف والخشونة . اشتريناه في الهند  
 فمكث عندنا بضع سنين وكانت قيمته تنيف على التي روية ولما قتل الاشرار محمداً  
 سعوا في اخذه فما قدروا لانه كان يهرب بالنهار الى الصحاري والغابات ويأتي في الليالي  
 لحراسة جثة خادموه القديم . والحلاصة اننا وجدنا مدخل البيت بدلالة هذه الشجرة  
 وكان صهري قد اوصى الذين جاؤوا معنا من المشاة ان يقوموا بالمحافظة في اطراف  
 البيت . وصفر فلم تضر ثلاث او اربع ثوان حتى ظهر لنا سراج من داخل سرداب  
 كان انباراً لبعض اللوازم البيئية فمشينا على اثر هذا الضوء الضعيف ولعلم المظالمون  
 ان مقصودي مخصصاً في ايجاد طلي فقط . ايها الامل انك شيء عظيم . ويجرد وصولي  
 السرداب رأيت ابني العزيز نائماً في زاوية من زواياه فهزلت وكدت من شدة  
 شوقي ان انقض عليه كالبار . وارتد ابقاظه فقالت دايتة لا تعجلي ودعي طفلك  
 نائماً يستريح ولا توحشه . فعدت عنه واخذت بيده اللطيفة بيدي وقبلتها فاثلة اي  
 بني طالعت جوهنك . وتمادت اوبنك . ابن كنت . وبأي ارض قطنت .  
 امطت عن ابي الدجى . وعن قلبي الشجى .

• افر هذا الزمان عبي بالجمع بين المني وبينني .

فنسيت بملاقاة ما مرّ بي من بوارح السفر . لاني كنت انتظر كما تنتظر الارض  
 وسي المطر . ولو اردت تفصيل ارتياحي لصاق الوقت وفانت الفرصة على ان ضيق  
 المقام لا يسمح بذلك . فاطال لي هذا الامد حتى اوعز الي زوجي بان تنكر بهلباس

المهود . وكانت الدابة تقول لما التجأتم في اول الثورة الى دار القاضي وشاهدت اضطرابكم ونور طمكم في البلايا ابقت انكم لا تخرجون منها بسلامة فقلت في نفسي اني طالما تحملت مشاق تربية هذا الطفل من اوان طفولته وحملته على كتفي من حين تناغيه فلا تدعني علاقة الحب التي حصلت بي وبينه ان اتركه هنا فخرجت من الدار خلسة وقصدت هذا المكان واعلمت صهركم بهفري ليغبركم بحالي وارده اليكم طفلكم اذا افرج الله عنكم . وها اني اسلم هذه الامانة النفيسة والوديعه الثمينه اليكم ويكنيني سعادة ان الله وفقني الى هذه الخدمة

فليسنا تلك الالبسة وطيننا وجوهنا وسواعدنا وارجاننا بلون اصفر كثيف مشابه لالوان الاهداء واخذنا ما نخناج اليه من الماكول والملبوس ما اعده لنا الفيلان قبل موته وحملهاها على احد الافراس ونحن كمسافري البحر اذا اقلعوا في السفن انقطع رجاؤهم من كل الجهات واصبح زمام حركتهم وسكونهم في اكف ربانها ونوتها فوضعنا ازمة اختيارنا في كف ولبام وصرنا منقادين لاوامره فلما حملت الاحمال وحضرت المراكب اقبل البنا وقال «اركبوا الآن واقطعوا الطريق بهزيد التعجيل واذا بعدتم من دهلي خمسة فراسخ تبلغون ساحل نهر ( جمار ) وهناك غابة كثيفة الاشجار تدخلونها وتوقدون كبريتا فتجدون فيها بهذه العلامة ملاحا استاجرته ليحمل اثقالكم معكم في سفينة شراعية ويكون دليلا لكم الى مدينة ( آكره ) واسأل الله القادر المتعال ان يحفظكم في حالتي الحل والترحال . اما انا فساذهب لمقاتلة الاشرار الى آخر حشاشه نبي في حفظا لشرف انكلترا وعظمة رايها في دهلي ومعاماة عن ناموسي العسكري »

## الفصل التاسع عشر

### مساعدة الطالع

كنا الى الآن نتصور ان صهري لا ينفارقنا ويكون بعد ذلك رفيقا لنا وعونا لضعفنا فلما سمعت آسن اسم المناارقة صاحت وامسكت ذيل زوجها باكية .

فوقع وبليام بين معظور بن لا بدري ما يفعل فمن جهة لا يقوى قلبه على المناقفة ومن جهة اخرى لا يريد ان يتخلف عن الحرب لان القانون العسكري يجبره على الذهاب والحاق برفقاته . اما بنتي المسكينة فلا يهملها امر القوانين ولا شرف الخدمة او حفظ التاموس وانما هي تطالب وجود زوجها لنفسها خاصة ولا تتبع حظ لفائمه العاجل باي خير آجل . فلما رأى وبليام انه لا يقدر على ارضائها جذب ذيله من يدها وطفق يعدونحو الدرج لينزلني دهلي فبينما هو يريد الخروج واذا بواحد من الخدمة منعه وقال اطفئوا السراج لاني شاهدت فرساناً قادمين الينا فسأله صهري هل علمت عددهم قال يظهر من صهل خيولهم انهم نحو العشرين وما أتم هذا الكلام حتى اخبرنا الآخر ان الفرسان احاطوا باطراف البيت . فصاحت بنتي وقالت « لو قتلنا هنا جميعاً لكان احسن من الفراق ومن حسن طالعي ان الهنود حاصرونا لينسد طريق الفرار عن زوجي »

ونظراً لاشتداد الظلمة وتردد الفرسان في محاصرة تلك الجهة تخفنا للفرار ورأينا الغنمية في النجاة فخرجنا متوكئين على الله وقصدنا مبرمة وما زلنا نحبط في ذلك الديجور حتى وصلنا ساحل نهر حننا وهو الطريق الذي انزلنا فيه الدرويش بتعاستنا القادمة منذ بضعة اسابيع فقابلت سعادة ايامي السائلة بالشدائد الحالية . وكنا نسمع انين الليل من خلفنا عن بعد الى مدة وظهر لنا انه متأثر من مفارقتنا . اما سبب هجوم الفرسان ومحاصرهم ابانا ان مستخفي الباب اخرجونا من دهلي بتطبيع صهري وبعد خروجنا اعلموا الاهداند بفرارنا من هذا الطريق فارسلوا هؤلاء الفرسان في اثرنا للقبض علينا . وما زلنا نصل الآساد بالتاويب حتى بعدنا عن دهلي مسافة طويلة وبلغنا غابة صغيرة فاشعلنا كبريتاً فاجابت ذلك الضوء شعلة نار ظهرت بين الاشجار واستقبلنا شخص اشار علينا بالركوب في قارب صغير كان هناك فجلسنا فيه وجري المياه بسوقة . وكانت المسافة بين دهلي واكوه ١٧ فرسخاً فقطعناها في ستة ايام . وكنا نظوي الطريق من اول النهار الى آخره وننزل في الليالي على الضفاف البعيدة عن العمران

ونظراً للدهشة والتعب الطارئين علينا في اثناء النهار من خوف الظفاعة واشتداد الهاجرة كانت الليالي نعمة عظيمة لنا وواسطة لراحتنا وكلما تقدمنا وجدنا

الطريق مخوفة بالمخاطر والثورة قائمة ورأينا النرسان والرجال العارفين من ضفتي  
النهر يقتلون الافرنج الذين يرونهم في الطريق . وطالما هددوا ملاحنا ليسوق السفينة  
الى الساحل لكنه كان لا يعبأ بتهديدهم . وكانت نائيتنا بعض الاحيان زوارق صغيرة  
بين صاعدة ومخدرة يريد الاشرار الساكنون في قرى الاطراف يجهلوا عنا . ولاخفتنا  
في السفينة اشد الاخفاء كانوا لا يشاهدون لنا اثراً وفي عصر اليوم السابع نزلنا عن  
السفينة الى الضفة اليسرى وقد غربت الشمس وانعكست اشعتها اللامعة المحمراء على  
مناظر جامع اكره فازداد رونقها وبهاؤها . وهذا المسجد من احسن مساجد الهند وضعاً  
وامتناً بناء . واشرفنا على النصر المرمر الذي بناه أكبر شاه الهندي وهو الآن من  
استحكامات الانكليز . وبعد النزول وجدنا في هذا الموضع سفناً وزوارق صغاراً قد  
رست في ساحل النهر فعرفنا ملاحوها واخذوا عرفانهم وكان ويليام يتكلم باللهجة  
البنكالية بكل فصاحة كأنه بعض ابناءها فكالمهم بها فعلنا ان الشعب يتزايد في هذه  
الانحاء والانكليز مخلصون في قصر المرمر ينتظرون وصول نجدة من الله آباد فخرجنا  
في امرنا فاذا دخلنا المدينة لا نجد طريقاً الى الاستحكام الحربي وان حططنا الرجال  
واردنا الاقامة لا نظمن من الابتلاء بالتوازل على اننا نعلم يقيناً ان الطغاة سيكشفون  
امرنا ويقتلوننا فلما ان نغتم العجلة في الحركة قبل وضوح الامر . ومن اي  
الطريق يا ترى يصلح لنا الفرار

وفي آخر الامر تعلمت ارادتنا ان ندخل الشارع الاعظم فانه معبر البريد  
والقوافل عسانا ان نلتقي بعساكر انككته فنلتحق بهم . وكيف تمكن من ذلك بلا  
مراكب . فاجمعت الآراء على ركوب السفينة وقصد مخدر النهر للبلوغ الى مدينة  
( كاوان بور ) التي فيها الجنرال ( ويلو ) سردار الانكليز فلم يوافقنا الملاح على ذلك  
وإني الامتثال فقلنا نعطيك الف روية عن كل رأس فامتنع وقال ما سلكت هذا  
النهر ابداً ولا احسن سوق السفينة فيه . فقلنا ان كنت لا تقبل التماسنا بع القارب نمسوقه  
بانفسنا فامتنع من هذا ايضاً . وكان مقصود ذلك الطماع الخادع ان يبيع قاربه حسب  
مظالمه لما رأى من اهتمامنا الشديد في اخفاء نفودنا لتكون مستورة من وقوف الغير  
عليها وكنا نموه ان اكباسنا خالية وزناد ثروتنا كابية . لكنه لما اشم رائحة الروية  
اصر على الامتناع حتى نقدناه ثمة خمسمائة روية ولا يشترطوا احد غيرنا بل اكثر من  
مائتي روية

وبعد قطع المعاملة أصبح من المحزم ان لا نتنظر طلوع الشمس بل تتباعد من  
 اكره قبل الصبح . وحينئذ جاءنا رجلان من الملاحين ونعمها بسوق سنينتنا وان  
 يكونا عوناً لنا في بلوغ المنصد فردّ زوجي طلبها وما قبلها . اما انا لحو في علي ابني  
 وبني من احتدام الحرّ في النهار وشدة البرودة في الليل كنت مصرة على ان يستأجرها  
 زوجي لهك الخدمة . ولكن تجارني في حق الهنديين كانت سطيحة ننناول الظواهر  
 وتصر عن البواطن . أرى صورة الاشخاص مرآة لسرايرهم . وقد كنت اشاهد في  
 بشره هذين الملاحين آثار صداقة ومروءة ولم يخطري انها يتوبان تعزيرنا وكنت  
 اظنهما لو ارادا الخيانة بنا لاستطاعا الذهاب الى الاشرار حولينا واخبارهم بمكاننا .  
 واخيراً رضي زوجي وصهري فاستأجراهما بالرغم عنها وحلفاها بهاودا ان لا يخونا  
 ولا يتنصا عهدهما ( مهاودا اله من آلهة البراهمة وعبدة الاوثان ولم في حقد عواند  
 وخرافات مضحكة مثل آلهتهم المسماة برها . وفيشتنو . وسيفا . « معرب » ) فحللنا  
 بعودهم ونحن غافلون انها يضران عداوتنا وان طريقتهما مخالفة لطريقة البراهمة  
 ونحن لجهلنا اختلاف النروع والاصول المذهبية قيدناها بهذا الحلف الخالي من  
 النتيجة المأمولة ولا ندرى انها من معارف اللصوص الذين يشتغلون بالسرقة على  
 شواطئ انهر الهند . وخلاصة القول اننا نحررنا من مقامنا بمزيد الاطمئنان وكان  
 مرورنا من معاذة قلاع اكره . ولما وصلنا هنا نامنا قليلاً فوق الماء لعل الانكليز  
 المتخصون فيها يروننا ولما يتسنا من تلك الاشارة وكانت الشمس على وشك البروز  
 بعدنا عن المكان خوفاً من الاشرار

كنا في راحة منذ ركوب هذا الفلك لان العريش الذي يظللنا وسيع ويمكننا  
 في خلال ذلك تغيير اللباس اذا دعت الحاجة اليه وكان زوجي وصهري يخرجان الى  
 ساحل النهر يصيدان البيغاء والطاوس وبعض الطيور المائية فنشوي لحماً طرياً  
 نغذّي به . والمسافة الواقعة بين اكره وكاوان بور من طريق الماء سبعون ساعة  
 وهذان الرجلان يسوقان السفينة بتأن وتأمل عمداً وفي اليوم الثاني انكسرت سفينتنا  
 بقرب الضفة اليسرى في موضع تقاطع الساحل بالمحط العودي ودخل فيها الماء فنزلنا  
 واخرجنا منها بعض اللوازم لئلا نفرق واسمسكنا بعروة الفلك في جهة انكسارها  
 وكيف انها انكسرت في هذه النقطة من غير سبب . فاادررنا سبب ذلك وانما حملناه

على سوء الطالع وبالجملة اننا سعدنا الى غاية وانقبتنا ثمة قطعة ارض مسطحة خالية من  
 الاشجار واخترناها منزلاً لنا ولما اقبل الليل اوقدنا ناراً لدفع اذى البعوض وشر السباع  
 ثم اكلنا عشاءً مختصراً من بقايا طعام اليوم واقمنا شرائط العباداة . ولما قرب وقت  
 النوم قال زوجي يجب ان يكون كل منا حارساً لنا بنوبة معينة الى الصبح ونكون  
 مطمئنين . ومن بقدر على النوم وقد شوشت تصورات الحوادث الماضية خواطرنا  
 بحيث لا نقدر على تمديد الاعضاء . فضلاً عن النوم  
 وكنت اتصور كيف يمكن لنا العفر بعد ذلك هل نجد زورقاً لمواصلة السير .  
 وهل ننهض من هذه الدل والمسكنة . وهل يرجع اليها عزنا السالف فتناومت بهذه  
 الحالة ليلتي زوجي وبنتي اثري في النوم ويستريحان واظنهما ايضاً تناوما رعاية  
 لحالي والذي نام عندنا بزيادة راحة وفراغ بال ابني وبيل وكان صهري خارج الخيمة  
 مشغولاً بالحراسة لان نوبته تنتهي قبل نصف الليل بساعتين ونوبة زوجي الى اربع  
 ساعات بعد وبعدها نوبة حراسي الى آخر الليل

## الفصل العشرون

### طائفة ثوك الطفة

اما الرجلان اللذان معنا فانها النبا نوبتها على رأسيها في زاوية منقطة بالخطوط  
 المائلة الاستوائية وتبين لنا انها ناما . وكنا قبل النوم قد جمعنا شيئاً كثيراً من  
 الاغصان والاوراق والنباتات اليابسة وتركناها خارج الخيمة عند موقدة كانت  
 هناك لتوقدها نباحاً دفماً لمضار الوحوش والحشرات اللادغة . فقال احد الرجلين  
 « انا في الغداة ابحث عن سنبنة تحملكم » آه ما اطول الليالي التي تمر في خط الاستواء .  
 كنت في الخيمة مستلقية على فخاقي جاعلة صدري بساطاً لطفلي كاني في سكرة من  
 توارد الفلافل وتراكم الخاوف فتارة اخاطر بنفسي في مدلمات الرزايا واخرى استعمل  
 تريباق الصبر ومرم الثبات واسلي نفسي الحزينة واقاوم الاهوال . ومع ذلك فلم اكن  
 غافلة عن حالة زوجي وبنتي اعد انفسهما واجس نبضهما وانصت دقات قلبها . واذا

رأيت النبض ودقات القلب منتظمة على حسب النواعد الطيبة والموازين الطبيعية  
 اطمئن بالي واذا رأيت احداً في انقلاب واضطراب اتلوى كحبة اصابها جرح والذين  
 هم مشغوفون بحب العائلة معلنون بأولادهم يعلمون ما اقول ويدركون ما لو اردت  
 شرحه لطال الكلام . ولما قربت نوبة زوجي خرج للحراسة ودخل صهري ونام في  
 مكانه واعلمني بشفقة زوجي علي خفت ان يغلب علي النوم في نوبتي المعينة ولا يوقظني  
 للحراسة رعاية لي ويسهر في عملي فعولت علي ان لا انام ولكن الطبايع البشرية  
 عجيبه المره حريص علي ما استع فقد كنت من اول الليل الي مضي ساعتين من نصفي  
 مطلقه العنان في النوم فماالت عيني اليو ابدأ واما الآن وقد حانت نوبتي وفربت  
 ساعة حراستي اجد نفسي مائلة الي النوم وقد غلب علي بحيث لا افدر ان اكون  
 حافظة علي زمام اختياري . فامضت عشر دقائق الا وامل العباس رأسي فما منعتني  
 هبوب النسيم من النوم مع اني كنت اريد ان افوز في جنح الليل بمشاهدة بديع الخلفة  
 ونوادير الطبايع ولكني نمت ولم يؤثر في زفير اللبوث . ولا بغام الظلماء . ولا ضعيب  
 الارانب . ولا بناج الكلاب . ولا صرصره البراة . ولا جملجة التمساج . ولا طيران  
 الخفافيش . ولا حترشة الهوام بين الاخشاب . ولا تلاطم امواج جننا . ولا تكائف  
 الظلمة وادفهامها في هذه الليلة اللبلاء . ولا مطلع الكواكب واحساسها . ولا غواربها  
 وركودها . وما اجدت تفكراتي في تلك البدائع فائدة فران علي جفني الكرى وعرائني  
 منه ما عري . علي ان مشاهد هؤلاء النعوت . مما ينتج الوله واليهوت . وفيما انا في  
 عالم النوم كأن يداً نيهني فنمت من النوم مذعورة وطفنت امسح عيني وانظر الي  
 جوانب الخيمة فواجست في نفسي خيفة ونصورت شخصين يجولان في اطراف الخيمة  
 فعلمت علي الواهمة انها ربما كانا من طائفة ثوك المنفدم ذكرها وهم الذين يعتبرون  
 خفي الانسان من غير تابعي مذهبهم ثواباً دينياً . فاستولت علي هذه الفكرة بدرجة كان  
 جسني خلا من الروح فما بقيت في قوة للحركة والقيام وفي انشاء ذلك بكى طفلي واتبه  
 بصوت زوجي وصهري ونادياتي فرالت وقتتد وحشيتي فاطهرت لها التفصيل فتخرا بي  
 ونسبا الي الجنون وكانت النار الموقدة في خارج الخيمة قد انطلقت من ساعة فالتبت  
 في المستوفد حزمة حشيش فشبت النار والتفتنا الي الرجلين اللذين كانا دليالينا وقد ناما  
 في مفرقة من الخيمة فاذا هما قد قاما لانلاقنا ولما رأينا انتيهنا هربا وغابا عن انظارنا

فعلنا انهما من فرقة ثوك (الطاعة) وانها لما احما ان عندنا شيئا من النفود والاشجار  
الثينة كسراسنينتنا عمداً وانزلنا في هذا المنزل البعيد عن القرى والمدن ليحجبا  
علينا بدون مانع ويخلصنا نفودنا ويهلكنا نفوسنا . لكن لطفه جل وعلا ثملنا بيكاه  
الطفل فانا نالا قصدها التاسع وفراراً فرار الآبق . فتباً لها من خادعين ماذفين .  
وهل يمكن النوم بعد هذا وقد بقيت اطلوع الصبح ثلاث ساعات وبرد النسيم فنام  
وبل وجلسنا نحن الثلاثة بجانب الموقدة نشاور ونهدد طريق الغداة وتفتكر في وسابل  
الحركة وجهات العزيمة وكانت لصهري خيرة نامة بالطرق والشوارع فقال نحن الى  
الآن لم نقطع نصف طريق كما وان بور ولخترز بقدر الامكان من دخول الطريق العام  
فان الطغاة قد ملكوا هذه الجادة . ولو كنا نزلنا حين انكسار السفينة على الضفة اليمنى  
لكان احسن لنا لخلوة من العمران وخطر العابر والمنردد لكننا كما مجبورين على  
النزول بهذا السميت لان هذين الخبيثين اوردانا هذا المورد وليس لنا حق ان  
نشكسو حظنا فان انكسار السفينة كان مبنياً على قصد معين كما اطلعتم عليه . وقد  
رأت ارباب التجارب والسباح في كثير من الاوقات ان هؤلاء الاشخاص الذين  
يباشرون قتل الخلائق يشككون ادارة لعلمهم هذا هي عبارة سبعة شركاء . لكل منهم  
وظيفة بناء على السنن التي اخذوها عن رؤسائهم وعلمائهم واليك البيان

(الاول) مرشدهم ورئيسهم الذي يتلقون اوامر المطاعة (الثاني) الذي  
يخدع الناس ويأتي الشراك (الثالث) رجل مرتاض متعبد شغلة القيام بقراءة  
الادعية المتضمنة تعجيد معبودهم عند اهلاك النفوس (الرابع) و (الخامس) رجلان  
بشغلة بجنف الحفر العميقة ابطحاً فيها اجساد القتلى (السادس والسابع) هما المكلفان  
بخلق الذين خدعهم بتدبير مخصوص لهذا الامر . وطريق الدفن هكذا . يطرحون  
الجسد على ظهره في قعر الحفرة ثم يلتفون الآخر فوقه على بطنه بحيث يجاذي رأس الاول  
رجلي الثاني وان كان الخنوقان اكثر من اثنين يضعون الثالث فوقها على ظهره والرابع  
فوقه على الترتيب المذكور .

فقلت لزوجي الا تظن هؤلاء الاشرار يحملون علينا فقال و بلبام لا تخافي اني  
اعرف بهم .كم وقد اطلعت على شرائط اغتيالهم فانهم ينصبون شباك الحبل لايقاع  
النفوس في ورطة الهلاك خفية ولا يندرون على ذلك جهاراً . وفيما نحن كذلك واذا بوقع



اقدم خنيفة تقرب اليها فاسئل صهري وزوجي مدهسيهما وتأهبها للاطلاق فرأينا  
 قرني ظي ظهر بين اشجار الغابة وعلما انه شاهد ضوء النار من بعيد فاراد التفرج  
 بها لكنه لما رأى حركة زوجي فرهاربا . هذا الحيوان الجميل ليست له راحة في  
 الغابة يياض اليوم وسواد الليل يهرب على الدوام خوفاً من الوقوع في مخالب النور  
 والاسود لا يتوقف في مكان قط وهو في الخنيفة مثلنا . والخلاصة انه انتم نغرا الصبح  
 وانتشر جناح الضوء في الافق ونحن نردد رأيي ويليام ان نحترز من دخول الشارع  
 العام ونقطع المسافات من هذا الطريق وكان يقول ان الهنود لم يستفعل امرهم  
 في بلد مدن الهند كاستئصاله في دهلي وميرتهه ويحتمل ان تكون ناحية اله آباد خالية  
 من النتن آمنة مطمئنة . واول هندي نلاقوه في طريقنا يعلمنا تجاري الامور وربما  
 اتخذناه واسطة لتفصيل طعام او لباس او مركب او عربة لحمل الانتقال . اما زوجي  
 فكان لسوء ظنه بهؤلاء يحترز من ملاقات الهنود ودخول الطرق العامة وقال حينئذ  
 اريد ان اذهب الى سنديا فان لي فيه رقاء وشركاء من الفلاحين . وقد كانت لي  
 سلطة خاصة على زوجي غير ما لتسوان فرنسا على ازواجهن وسبب ذلك اني من اول  
 زواجنا شاركنه في التعب والراحة وآسئته في الشدة والرخاء . وما اطلقت يد الاسراف  
 في ماله ولا خنت ناموسه وما تجاوزت عن طريق العصمة والوفاء ولهذا الامور  
 كان يعتمد علي ويثق بحصافة عقلي

## الفصل الحادي والعشرون

### الاجنيز في الصحاري

ولما بينا رأيهما في اخيار السبل استطلعا رأيي وبعد التوكل على الله قلت  
 بقوم في خاطري ان اسلم الشفوق طي الطريق من ساحل نهر جينا فما خرج هذا  
 الرأي السقيم من في الا وتلثياه باستحمان . وناهيك عن تصدع النواد اذ أتذكر  
 رأيي هذا والنتائج المشنومة التي نرتمت عليه . فما سرت اليها هذه السموم الآمنة نعم  
 اذا جاء القدر عمي البصر والجريان اقلام القضاء بحكم المشيئة الازلية علم فناننا

استحسننا قولي حتى ترامت بنا البلدان والاسفار وتتابعت علينا سهام النضابا ووقعنا في المهالك . الووم نمني مادمت في قيد الحياة واتلطف على خطائي الفاحش ودلاني الحناسة في بقية ايامي السودا . . وخلاصة القول انا دخلنا اليوم التاسع والعشرين من شهر ماي وكان ذلك اليوم بعد فاتحة الغصص لوحيت التي عام ما نسبت المصائب التي وردت علي فبادرنا بالمسير وما زلنا نغير ونجد حتى انقضت ثلاث ساعات ونحن نخوض الاراضي السبخة ذات الرمال المحرقة نارة ندخل الغابات واخرى نخلل الاكام فلوحت الشمس معيانا لعدم مظلة نطللنا في تلك الهاجرة التي يكاد اوارها يدبب دماغ الضب . وصلنا والحالة هذه الى غابة عظيمة اختلف فيها جهات السبل فانهبكنا التعب واللغوب وكان زوجي قد اعبا لانه كان يحمل حملاً صغيراً من احمالنا انا وبنتي ايضاً كنا نحمل وبلاً متاوبة

وهذا الطنل قد غلب عليه العاش في هذه المنازة يشير الى النهر بيديه الصغيرتين وانا اخاف ان تاخذني مهلكة من شرب هذا الماء الغليظ وكنت نارة اشغلة واخرى اسقي جرعة قليلة نسكيناً لمورة عفاشو وقد حصل لي نحر عظيم لانني لا اقدر ان اسقي . ولعنت من كان سبباً لايقاعنا في ورطة البلايا وزاد اسقي لما رأيت نارجيل كثيراً في الاشجار ( النارجيل او جوز الهند ثم معروف شجرة يشبه النخل شكلاً طامعة عفار قابض يخرج من اصوله سائل مسكر وهو طعام كثير من الناس واذا كان طرياً فهو من الذنواكه « المعرب » ) وليست لي قدرة على تحصيل شيء منه ليا كلة طفلي وبسكن عفاشو ولو واصلنا المبر لهلك فخطرنا لك ببالي انه كان في عمارتنا التي خربت في اثنا الثورة في الغرفة المعدة للاضياف بين ستور التصاوير ستر عليه صورة صورها احد مهرة مصوري فرانسوا واظهر فيها حالة عاتلة فلاح انكليزية ابنت بالنفق والافلاس بعد الغنى والثروة واضطرت للجلاء عن وطنها فلما خرجت كان يتقدمها في المسير اب اطرق برأسه الى الارض وقد احاطت به الهوم . تبعها ام مخيرة في حجرها طفل رضيع وبنيت مسكينة باكية يتبعهم ابن في العاشرة او الثانية عشرة بجزيرة ذات عجابين حملوا عليها انقالهم وما يستعينون به على مؤونة السفر . وكنت حين رويتي هذه الصورة في اوقات سعادي تقبض نمني وما كنت اتوقع ابداً ان افق في هذه الحالة وان الصورة الموهومة التي نقشها المصور

اظهاراً لصنعتهم ومهارتهم بتحقيق مفهومها بي واكون موضوعاً لهذا النفس الخيالي . وما  
 زلنا نظوي الوهاد والربي حتى وقف المسير بنا على ابتداء غابة فلما الى ظل شجرة  
 من التين وهو بيت في اكثر الغابات والاهاند بعدونه وهو يثمر نوعاً من  
 التين احمر اللون حلو الطعم نأكله الطيور خلافاً للتين المشهور بتكالي فانه امره  
 من السم النقيع . فحططنا رحالنا وناولنا شيئاً من ثمره اما صهري فكان كسائر الاصهار  
 الذين استعبدتهم محبة زوجاتهم فيخدمون اقاربهم وعشيرتهم اظهاراً لحسن الوداد  
 فكس الرمال والتراب في بقعة صغيرة واوقد ناراً لتفريق الحشرات لاسيما البق  
 المؤذي ثم فرش تلك البقعة باوراق الاشجار وسبجها بالاشواك ودعانا للجلوس ثم  
 غاب زوجي هنيهة وعاد بطيور اصطادها واقتطف قدراً كبيراً من الفاكهة من  
 الموز والبطيخ الهندي فاتظمت لوازم تعبنا وجلسنا في تلك النقطة ثلاث ساعات  
 بعد الظهر اكلنا شيئاً ما حضر واسترحنا من عشاء السفر

ثم تفكرنا في الطريق ونحن ضالون في تيه التعاسة لاندرى اننا في اول غابة طولها  
 عدة فراسخ فما الذي يجب علينا ان نفعله للنجاة من هذه المهلكة هل نبتدىء من جانب  
 النهر ام من هذا الخط الضعيف الفاصل بين الغابة والاكمة وعلى اي حال كان علينا  
 ان نسمى في الخروج قبل دخول الليل . وقد طالما طهجت السنة حكاه انكثرة وشعرائها  
 بالاحترار من الميت في هذه الامكنة وذكروا في غصون كلامهم واشعارهم المضار  
 المنتظرة من التوقف فيها . وبعد التأمل العميق صممنا على قطع الطريق من  
 هذا الخط

ان السباع والوحوش الضارية كثيرة في غابات الهند بل هي اكثر من ان  
 نحصى وفيها انواع الحيات ومنها نوع ادق من الخيط يسمونه بناجا وهي اخبثها  
 اذا نهشت قتلت من ساعتها . وغير ذلك من الحشرات الفتالة والهوام المؤذية  
 والخنازير الصغيرة والافبال العظيمة والقروذ والكركدن والذباب السام وفيها  
 الحفر العميقة الممتلئة بالوحل والمياه العذبة التي تغير من تنبها الهواء المجاور لها  
 بمرور الازمنة والدهور والنوت باطرافها الاجام بحيث اذا وضع الانسان رجلاً في  
 واحد منها غاص في الطين اللازب وغرق وليس له سبيل للنجاة ولا يمكن لاحد  
 اخراجه . كل هؤلاء كانوا في انتظار ضيوفهم الواردين ليومواً بواجب الضيافة .

فقلنا ولنغتم النهار لنبلغ قبل انقضاء الضياء قرية نترل في ساحة خالية من الاشجار  
نخذها منزلاً

وما كانت آمالنا الا مجرد خيال لانا ما قطعنا في الطريق اكثر من ساعة الا  
وخرجنا من الغابة ووصلنا الى نل رفيع سعدنا ذروته فاشرفنا على صحراء عظيمة  
واسعة كثيرة العشب والكلاء تمتد بامتداد البصر ورأينا من مسافة بعيدة شارع  
الهد كحاشية بيضاء خيطت على متن اخضر . وظهر لنا في انهاء الافق وخاتمة الصحراء  
اثار مدينة عظيمة من قبيل منارات المساجد وعلامم النصور

فقال ويليام دن مدينة اتاواه فصاح زوجي فلتوكل على فضل الله ولننصد هذا  
السيبل واذا لمعنا مكاناً نختاره منزلاً . وفي الحقيقة ليس الهنود كهم يريدون فناءنا  
فقد نجد قوماً ذوي مروءة او ثلثي بطائفة ذات قوة فتستريح من تكبد الاسفار  
والاخطار . ونظرت في هذا البناء الواسع فلم يظهر فيو شي يبدل على الثورة او علامة  
تنبئنا ببلوغ الفتن الى هذه النواحي وخاطبني زوجي قائلاً « ألا ترين الجمال وعليها  
احمال التجارة ثم متناطرة على الطريق . ألا شاهدين تلك الاقبال العظيمة  
وعليها الهوادج يقطعن الطريق بطائفة تامة . ألا تنظرين الى هذه العربات  
وهؤلاء الفرسان والمشاة يسلكون السبل من جهات مختلفة . ألا ترين الدراويش  
وابناء السبيل يتسولون بتذلل ودعة والنساء اللاتي يحملن الماء على ظهورهن أليس  
كل هذه من علامم امنية المملكة وعدم سريان الثورة الى هذه الناحية والي وطيد  
انا قد طوبنا ارض الرعب وصرنا الى حى الامن ان شاء الله »

مضت على زوجي ايام طويلة ما رأيتة بتفاهل بامثال هذه الكلمات فعلمت  
انه يريد نقوية قلوبنا ببياناته المهيجة وخيل لي انه قد انتهت ايام التعب ويبتلع  
نجم سعدنا ولكن كلامه قلما اثر بنا ولا طابت نفوسنا ومع ما شاهدنا خضارة  
الصحراء ونضارتها كانت تزداد همومنا كأننا اتخذنا البلايا التي قاسبتها الى الآن  
علامة المصائب التي سنبتلي بها وان في طي ايامنا الآتية مصاعب وخطوباً ذات  
الوان . ثم رأينا على مائتي ذراع من موقفنا دائرة يحيط بها سياج كثيف من الخضرة  
فيها جماعة كبيرة يتحركون . هل هي قطع غم عائد من المرعى يريد الراعي ادخاله  
في القرية . ام هي بقر اشتغلت بالرعي . وفي اي حال لم يكن لنا بد من ملاقاتها

فرجونا فضل الله ورضينا بمشيئته ونحركنا اليهم وكان بزداد نعبنا لحظة فلحظة لاننا  
كنا نسمع من تلك الجماعة صوتاً عجبياً لا يشبه صوت الانسان ابداً . وثمانينا  
بعد قليل رائحة عفونة كريهة

واحرباء والوعناء كلما شاهدته في معابر دهلي رأيت في هذه الصحراء . ولما  
وصلنا المكان رأينا عشرين نمرًا من ابناء وطننا اُشربوا كاسات الخنوف ووقعوا  
على صعيد الارض صرعى وعليهم حلال ارجوان . وظهروا لنا ان الاشرار المهلبين تلاقوا  
بهؤلاء . فتقاتلوا ثم دفنوا جنث قنلام ونزكوا اجساد الانكليز امام الشمس  
نحوم حولها الوحوش والدمور ونشرب من جوائعها غريان الفلاة . وما كانت تلك  
الجماعة التي رأيناها من بعيد الا الحيوانات التي اجتمعت على اجساد المفتولين . فاطلق  
زوجي بندقية فتطاير عنها اكثر من التي غراب وفرت عدة كثيرة من الكلاب  
وبنات آوى . فلما دخلنا تلك المذبحة وجدنا نمرًا عظيمة الجثث ملأت احشاءها  
من لحوم الاموات حتى لا تقدر على الحركة فابعدناها جبراً . وكان وبل في حجري  
ودموعي تنسكب من امامي . سبحان الله الى ابن ذهبت تلك البشائر التي كان زوجي  
يشترنا بها فقد انقلبت<sup>١</sup> بهذه السرعة . وعلما ان الثورة تناقم امرها في هذه الاصفاع  
ونحن النعساء ما خلصنا من ايدي منهصي دهلي حتى وقعنا في مخالب سباع آله اباد  
ومملكة اوده

## الفصل الثاني والعشرون

### ❖ القرية المحصورة ❖

ولما بعدنا من هذا الموضع شاهدنا آثار قرية محصورة وامثال هذه القرى  
كثيرة في مملكة بنكالة . وذلك ان ساكنيها يجيئونها بسور محكم حوله خندق بعيد  
المهوى والطريق الذي نسلكته الآن ينهي اليها والصحراء كما قلنا كانت ذات حقول  
ومزارع من الارز والحبطة . والعجب ان القرية تظهر خالية من الناس مع وقوعها في  
تلك الارض الخصبية المعمورة ورأينا في داخل حصار القرية نخيلاً . فقال زوجي ارى

انه قد التف بخلة شيء يشبه اللوا . فقلت محببة اظن ما تراه يتلوى حول الخلة راية  
انكثرة وان عساكرها نصبوها علامة يهندي ابناء وطهم بها . فما اتممت قولي الا وطرح  
هذا اللوا بنفسه الى الارض كأنه حيوان ذو روح فتخبرنا بين ان يكون انسانا  
او قردا لانه كان شبيها بكليهما بل هو اسمه بالفرد في سرعة حركته ووقوعه على  
الارض . قال زوجي لقد نظرت بهذه العلامة والظاهر ان سكة هذه القرية اقاموا  
رصد افوق الخلة ليلاحظ الاطراف ويطلع على العابر والمتردد فيجرم فقال صهري  
اني ارى جماعة تخرجوا من القرية ومشوا الينا . فتأملت وقلت اني ادق منك نظرا  
ان هؤلاء الاشخاص متلبسون بالملابس المحروفي مخصوصة بفرسان عساكر الانكليز  
كما جرت العادة بذلك . فقال زوجي الامر كما تقولين لكن عساكر الهند ايضا  
قد يلبسونها

وكنت قد لحظت منذ بضعة ايام ان زوجي صار الى غير عادته وطباعه  
فاصبح لا يتكلم الا نفيض ما نقول . ورأيت في مسلكه تباينا كبيرا مع  
مسلكي وانا في عجب كيف يتكلم بهاتو اللجة الشديدة . فوا أسفني ان كثرة الاحزان  
اضلته ففقد مزاياه الاولى السامية وقد اخلت عجزه عن تخليص اهله وعياله  
لا يبتك عرق الخجل متصبيا على جبينه ووجنته يرافقتنا منردا ويطوي الطريق  
متفكرا لا يكثر بسؤالنا . وان اجابنا كانت اجوبته خشنة . اليس هذا زوجي  
الشفيق ورفيقي العتيق الذي عشت معه سنين . وانيت في بيتي بينات وبينين .  
لو عوقفت القادير مونه لتغيرت طبيعتي وتحولت حالتي وكما ان الامراض تدعو الى  
ضعف الابدان فالتعاسة توجب انكسار القلوب وانقلاب النوايا والضماير  
وبعد برهة صاح ويليام وقال هؤلاء القادمون فرسان عساكر الانكليز فاخذ عامته  
عن راسه ونشرها ثم شدها الى راسه بتدقيته مثل الراية ورفعها قائلا « فلتعش امة  
انكثرة ودولتها » فاسرع من بينهم ثمانية اشخاص على افراسهم وقصدونا ثم وقفوا على  
عشرين قدما وصوبوا الينا بنادقهم وقرب منا رجل مسن وصاح بالبنكالية « من انتم  
واين تريدون » فقال صهري « يا للعجب لا يعرف كابن مارتن ابنه وتلبك القدم  
فا » لبك ذلك الرجل وقتئذ ان نزل من مركبته وتعانقا وتهلل وجهها انبساطا  
ولا اشرح تفصيل هذه الملاقاة وما قد يقع في امثال تلك المواقف فانها غيبة عن

البيان فلنذهب لبيان المطلب

ان « كابتين مارتن » من ارباب المناصب الذين شهدوا الحروب  
 والمغازي لة منزلة عليا في مملكة انكلترة مات ابو ويليام ايام طنوليتو فرباه  
 ذلك الرجل واقام بكفالتو حفظا لحق الصحة التي كانت له مع ايوه فلما ترعرع  
 ونا انخرط في سلك العساكر وبرز شجاعته وواظب على اداء وظائفه حتى نال  
 درجة النبابة . وكنا نعرف اسم الكابتين قبل هذا اسماً وكان من المدعوين في وليمة  
 تزويج آلن التي انعقدت في دارنا قبل الثور فاملنا القضاء ان نختم هذا العرس  
 على وفق امالنا . ولما فرغنا من المعانقة عرفنا ويليام بو واحداً بعد واحد ثم انطلقنا  
 الى القرية وعلما اننا ذلك ان مارتن قد قرأ من مدينة فرخ اباد مع عشرة  
 من الفرسان وثمانية من المشاة ليذهب الى آله اباد او بنارس . فالتقى في الطريق  
 بجماعة من الارامل والايام واقضت حبيته ان يوصل هؤلاء النساء الى ما من  
 اعلمهم يخلصون من الموت . وما زال بهم الى تلك النقطة فناجاهم هناك بغنة فوج من  
 الطغاة وحاصروهم في تلك القرية وجرت بينهم وبينه محاربات شديدة . وبعد ذلك نصب  
 الاشرار خيامهم وحطوا رحالهم وهم يتقطرون غضباً وفي نية مارتن ان يحفظ هذا الجمع  
 ويقاوم تجاه شرادم الاشقياء بفرسانو المعدودين . وفي اليوم الثاني لحنت اهالي  
 القرية بالهنود وذهبوا بما في ايديهم من الارزاق والمواشي والاغنام فبقي هذا الرجل  
 الغيور بين عنابين شديدين المحصار وقلة المؤونة

ومن التجارب التي نفع للبشر في موارد الخير والشر علم انه اذا اشتدت غياهب  
 المصاعب واحلوا الكت ليالي الخطوب تطالع له شمس السعادة وتنشع سحبها المتراكمة  
 بغنة فان لكل بداية غاية . وقد قيل في ذلك

ان ترى الدنيا اغارت ونجوم السعد غارت  
 فصروف الدهر شتى كلما جارت اجارت

فتصورت اننا بلاقاننا هؤلاء المتكودي الحظ الذين قضت عليهم مصائب الدهر  
 بالبقاء تحت سلطة التعاسة ستنفضي ايام النحس ويبقي الوقت الذي تخرج فيه يد  
 غيبية تبشرنا باقبال النعمة وبلوغ الاماني وانقضاء ليالي محنتنا المدهية  
 ويجعل الكلام ان زوجي زالت غصته وانهمط وجهه ولانت عريكتة وترك

النظاظه وطفق بعاملنا باللطف واللين والرفق والحنق وصهري داخله ارتياح خاطر  
من ملاقاته بالكاتبين وصار يقول ان الهياج سيرتفع بعد ايام معدودات وتصبح رياح  
الامن سارية في تلك الجهات وتنتظر في امر العرس فنزلنا هذه القرية وشاهدنا صاحبنا  
الذي رأيناه اولاً فوق النخلة

وكان الكاتبين خائفين من حملة الاشرار فاخذني من خوفه سوء ظن وسليت نفسي  
ببعض التوهات . اقبل الليل فعينوا منزلنا في بيت سقفة من النصب بقرب منزل  
الكاتبين وامروا تسعة اشخاص من النرسان والمشاة للحراسة الى منتصف الليل لينوم  
جمع آخر بالحافضة بعد انقضاء نوبتهم . وقال زوجي وصهري نحن ايضاً نقوم ونحرس  
من نصف الليل وقررنا بعد المشورة ان الاشرار اذا هجموا فعلى النساء ان ينقلن  
جميعاً الى القرب من حجرة الكاتبين وجاء نصف الليل وحانت نوبة زوجي وصهري فهبنا  
من النوم وذهبا فاردت ان اعرف نقطة اشتغالها بالحراسة فانطلقت على اثرها وبعد  
معرفة عدت الى مكاني وتمت

لا أنكر ان نوبي كان ثقيلاً للغاية لاني لما استيقظت رأيت الضوضاء مرنة  
وكان نصف القرية في حالة الاحتراق . فاخذت بيد بنتي وابني وذهبت الى موعدينا  
المعين فظهر لي ان الحريق من الشعل النارية التي الفاها الاشرار في بيوت القرية  
واجتمع امام منزل مارتين جمع من النسوان ينيف عدد من على الخمسين . اما عما كر  
الا تكلمت فانهم دافعوا في الاطراف ثم علموا ان الحاربة مع التفرقة لا تنفع . فاجتمعوا في  
محل اقامتنا وقد بذلت جهدي في البحث عن زوجي وصهري فلم اجدهما في الجمع .  
فشوشت غيبتهم خاطري وقلت هل اصابتها طلقات نارية في اول وهلة فاننا . فما مرت  
هنية على ذلك حتى ظهرا فاطمان قلبي . ثم دخل الهنود حائط القرية بجملهم ورجاهم  
وتقاربت الثتان . وبعد اطلاق الرصاص جردوا المرفقات وقامت الحرب  
على ساق وقدم وطال الكفاح فاخذوا يضربون السيوف ويشربون الخنوف . واول  
من خر على الارض مقتولاً كاتبين مارتين ذلك الرجل المقدم وقتل الرجال واحداً بعد  
واحداً حتى انت نوبة النساء فصاح صهري وقال لزوجي قد احتمت الحرب فعلينا  
ان نفر من حومة القتل واحتمت في نفسي قوة للفرار في رجلي من غير معاونة الغير  
فضممت طفلي الى صدري وانطلقنا مسرعين



## الفصل الثالث والعشرون

### ❖ خطب فادح ❖

آه واحزني على نوارد مصاعب تتصدع لها متون الراسيات . والوعني على حبل هذا الدهر المشعبذ الذي بصور كل لحظة صورة جديدة في صحائف تعاستنا وبتحننا في كل آن بهم كارت نحسبه آخر المصائب ثم لا تلبث اماننا ان تزول فنسقط في ورطة تتسد مخارجها ونضيق معارجها وننطفئ دلمعة النور ونحيط بنا الشرور . ابن ذهبنا تناؤلات زوجي ان امانيه لم تعش يوماً واحداً وما ذاقنا مقاتنا ليلة كراها الا واعنتب التوايب هجودها . ولا جرم فقد دلنا رائد النفدير الى طرف من اطراف القرية المحترقة . فحسبنا الوصول الى ذلك المقام فوزاً عظيماً ثم فررنا من هذه الجهة الى الصحراء وكان هؤلاء الشياطين يعدون من خلفنا فقبول منا بحيث كنا نسمع وقع اقدامهم ثم ظهرت اماننا مزرعة من قصب السكر فاخفينا فيها . وبعد قليل سمعنا صوت الايقاق فقال زوجي طيبي نساء وردى روعك . هذا هو الامر لم بالرجوع فديرجعون ونامن الخاطر ثم رجعوا عنا وما كانت رجعتهم هن الا اطاعة لحكم قوادم وامراء معسكرهم لانام احراق عنده من الانكايذ بين الذبن اخذوم في المعركة وليشتركلوا معهم في هنك نوايس النساء اللواتي اسروهن

رجعوا ولكنهم اطلقوا في اثنا الرجعة بنا دقم علينا . . . شلت ايديهم انهم ما فرغوا من اطلاقها حتى سقط واحد من امانى وآخر من خلفي . وقع صهري اولاً ثم زوجي على الارض وقد انتقى السحاب عن القمر فاغربت عيني وضاق علي الارض بما رحبت فشتمت وطرحتم طفلي من حجري والقيت تنسي على جثة زوجي فرأيتة قد انجرح وهو يقول « لا نصرخي ولا تخشعي وجهك اقل نجم حياتي وغربت شمس عمري ولا خوف لي من ذلك الا اني اخاف عليك وعلى اولادي من الهلاك » فشرقت حينئذ بالبكاء لا ادري ما افعل ولا افهم ماذا اعلم

فسأنته اي عضو من اعضائك اصيب بالرصاص . فوضع يده على صدره وقال « اصابني الرصاص من ظهري وهي الآن في داخل صدري فتوكأ علي وقام وشى بضع

خطوات فغالب عليو الوجع وسقط مرة أخرى وناذى اذ ذاك صهره وبنته وابنة وما اجابة  
 احد الا طفلة الصغير . فقيمت الى صهري وانا انصوران ويايام يمكت له ان يقوم  
 ويحيى . ابو العباد بالله من هاته الليلة اني لا اشرح كلما شاهدته عنوا ايها الفاريه  
 الكرم فان هذا تنف يسير من اخبار ابتلائي فبا لبني مت قبل هذا البلاء العظيم  
 وبا لبني مت في هذا الموقع لتلا أرى تلك الحوادث . ولما قربت من صهري رأيت  
 قد سقط راسها ووضع بنتي رأسه على حجرها نظرت الى جبهته في ضوء النور وهي بن  
 ضواغط الحزن تحتمها عبراتها . فظهر لي ان صهري اصابت الرصاصة في نخاعه فقطعت  
 اعصاب قلبه وضعفت اركان حياته من ساعتها وما تمكنت بنتي المسكينة من وداع  
 زوجها في ندمه الاخير فقلت لها قد انجرح ابوك فومي اليه قبل خروج رمقه فا  
 اجابني . سبحان الله قد اعترها خبل وانحطت حواسها اما انا فرجعت الى زوجي  
 فقال ابنها ابن صهري وبنتي لم يبقنا لا ودعها في هذه الساعة المنتمية لعمرى فان نسي  
 مشتاقه اليها وما الفائقة اذا وصلا ووجداني بيتا وحياتي لا تدوم اكثر من لحظة  
 لاني على شفير الموت

فقلت بهرج لقد غلبت عليك الوسواس . ما هذا الذي نقوله فاجابني بصوت  
 منقطع « آي زوجتي العزيزة قد حان ميقاتي . . . وهذا آخر حباتي برد بدني وتلاشت  
 اعضائي خذي يدي واستدي رأسي الى احضالك الآن افارقك . ذهبت واستودعكم  
 الله الآن والى الابد . . . استودعكم والله حافظكم . »  
 وما أم كلامه حتى قضى نحبه وفارق الحياة آه . . . واصيبتاه بالجسامة الخطيب لند  
 تراكت علي المصائب فامطرت موائل الذل والموان حتى غرقت في بحرها الذاهر  
 وكثرت علي مضارب الحدنان فاصابت حشاشة فؤادي وغاية مرادي . غاركوكب  
 سعدي فقيمت وحدي .

فكأنما قرن الزمان بولدي زحلا فكان الحس من ميلادي  
 ماذا افعل يا ترى حينئذ هل يذبح صراخي وعويلي هل يعالج سقم بسقم ويدافع داء  
 بداء . هذا الذي سقط ميتا كان بشرا أحبه ويحيى . كان زوجي وعوني على دهري  
 ومشييري في أمري ومشاركي في يسري وعسري . فمن ابني الانتصار بعد  
 على نوائب الدهر القدار

وخلصة القول ان رأس زوجي كان في حمري ويد طفلي الينيم بيدي وما زلت  
اراعي نجوم الليل واناحي بنات نعش حتى اذا طلع النهار التفتت الى بنتي فرأيتها  
لم تحرك من مكانها ابداً وهي لا تزال تنظر الي وجوه زوجها والهة حيرانة من غير بكاء  
او نكلم كأنها هيكل جامد ركر في موضعه وكان زوجها قد نام وهي تخاف ان توقظه  
الابعد استيقاف النوم . فمسحت عبراتي واقتديت بها في النظر الى جبهة زوجي ثم فكرت  
في حالي وناجيت نفسي قائلة « من الذي تربدين وما الفائدة من الانتظار . قتل زوجك  
وبعد ساعة تفعين انت ايضاً واولادك في ابدي الاشرار » وكان وبل كل دقيقة  
يذهب الى اخنوخ ثم يرجع ويجول في المزرعة كأنه ادرك وقوع المصيبة وعلم بموت ابيه  
وزوج اخنوخ . وبعد ساعة سألتني الى متى ينام ابي الا ينتبه من نومه . فعلمت انه لم يعلم  
بالوفاة وكيف افدر ان اعلمه بان هذا النوم نوم ابدي لا يقظة له وسكر لا صحوة منه  
فاشرفني البكاء . وقلت انك طفل طاهر القلب اطلب المغفرة لايك وزوج اخنك  
وادع لنا عسى ان ينظر الله الى صغر سنك واسترحامك فيرزقنا فرجاً . فنجنا على  
ركنيتي وشرع في الدعاء . ثم ارسلته الى اخنوخ ليرى هل هي ساكنة مبهوتة ام غيرت  
حالتها فرجع وهو يقول رأيتها نكي . فشكرت الله لان المهوم اذا لم يبك عند نوارد  
المصائب يخاف عليه من الفجأة وما تنظف اكدار القلوب الا امطار الدموع والبكاء  
هو الوسيلة الوحيدة لتزكية الروح وتخفيف وطأة الحزن

ثم كثرت الجلبة وارتفع الذبل والنال في طرف القرية ورأينا دخاناً غليظاً طبق  
البحر فعلمنا ان الاشرار احرقوا القرية بنامها . وحينئذ جلس وبل عندي وانكأ عليّ  
ووضع رأسه على ساعدي وشكى من الجوع وكان ذلك تمة نعامتي ان اسمع صوت  
طفلي الينيم يشكو الجوع . فاعتراتني خفقان قلب ودوار فاغمضت عيني وطفقت اناحي  
نفسى « من لي بقطعة خبز او جرعة ماء في هذا المكان فان الغابة على مسافة بعيدة والنهر  
كذلك فلا ابلغ اليه الا بعد جهد جهيد وكيف اترك جسد زوجي منفرداً واذهب .  
فدار في خلدي ان اقصد الاشرار وانقدم اليهم بحجز ومسكنة واسألم طعاماً لطفلي فان  
قلوبى اراحوني من هاته الحياة التعيسة .

فما كان املي هذا الا كقط على سطح الماء وما كنت الا كراحي سراپ تفتق  
بيداء هل ينقذ الموت طفلي من مخالب الجوع والعطش . كلا . الهياذ الله من هذا

الخيال الباطل لو كنت اطلب ذلك ابلاً وانا لا استطيع تحصيل الغذاء لطفلي اما  
الآن وقد ضربت الضحى اطنابها كيف يمكن لي هذا . وفيما انا في ذلك واذا بطفلي  
قد رفع عويله واجهش للبكاء . فسميت الميت وقمت لتخليص الحي . وكنت حائرة في  
امري مرتبكة باحوالي فسمرت جنة زوجي وقلت لوبل ان اباك قد نام فلا ترفع  
صوتك وانتظري ربنا احبي . ولما قربت من بنتي نظرت الي مستهبة ولسان حالها  
الى ابن تذهيبين وما تريدن ففهمتها قصدي فما اجابني ولكنها مدت يدها الى المزرعة  
وقطعت فصبة من قصبات السكر والفتها الي . فكسرتها واعاينها الى طفلي لبصها فلما  
مصها سكنت سورة عطشها فدمت على غنائي ورجعت . ثم نصورت ان امتصاص  
النصب يسكن عطش ويل لكنه يشكو الجوع بعد حين فاذا بدفع جوعه بعد ذلك  
لا اظن على وجه الارض والذئ او امرأة ابنت بتعاسي عظمت لوعتي وصدعتني  
النوائب صدعاً فكيف الخلاص من هاته الحياة المشعونة بالاكدار . فليت شعري  
الام تجاوز ملات الزمان حدودها . ونستفرغ في حتي مجهودها .

يارب ان كان عيشي هكذا غصصاً فامنن علي موت فهو ارواح لي  
لبنت في تيه الاستكانة انظر بمنة . فما اشاهد الا محنة . اعطف يسر . فما اري  
الا الحسرة . اذا ذهبت الى الاشرار فلا ارجو منهم مروءة . هل بركن اليهم بعد ذلك  
ويعتمد عليهم . وان بقيت هنا لا اطمئن من نجسهم والام تنعد ونبكي هل ينفع البكاء  
لا أنسى مدى عمري ذلك المشهد المحزن الذي يمزق الاحشاء . وينت الاكباد ولكن  
ما العلاج وقد وقعت الرزية

## الفصل الرابع والعشرون

### ❖ دفن العزيزين ❖

ان الاجساد تنعن في تلك البلاد الحارة بسرعة لا توصف بحيث لا تترك فرصة  
للتأمل فليس لنا الا ان نضع هذين الجسدين العزيزين امام الشمس ليكونا طعمة  
لمغربان واليهود كاجساد ساير الانكليز . . . لا والله لا ارضي بهذا ولو قطعت ارباً

ساحنر لما قبراً باناملي ولو نقطعت فاشتغلت بحفر القبر ساعة مجد وافر حتى سال الدم  
من رؤوس اصابعي وانا لم احنر الا شبراً واحداً . وسمعت حفيف اجنحة الطيور  
ورأيتهما تزرف فوق رأسي تزيد الوقوع على جسد زوجي فاستأنفت الحنر ثانية  
حتى امتلأت خلايا اظفاري بالرمل والتراب واصاب اناملي جرح عظيم فعبزت عن  
العمل فوقعت بجانب الحفرة ناظرة الى السماء والعياذ بالله واوشكت ان انطق بما  
لا يليق . اما الطيور فانها قربت مني بحيث كادت احسها نفس وجهي ففتمت صارخة  
وقلت « ايها الهنود ما بالكم لا تحبون وتفتلونني فاستخرج » وفيما انا في ذلك واذا  
بطلبي فتح يديه وعانقني وهو يشكو الجوع

نعم كان يجب عليّ اولاً ان ادفن زوجي لاني كنت ضجيعته وله عليّ حق البعولية  
لكنني لا اقدر ان اتسى حق ابني وهو مهجة فؤادي ولا ينسى لي ان اتركه جانعاً  
حتى ترهق روحه فمهمت بالذهاب الى الغابة وانطلت اولاً الى بنتي فوجدتها مشبكة  
اصابع يديها مطرقة برأسها تنظر الى وجوه زوجها فاعلمتها بقصدي فتنست الصعداء  
وقالت : هل يجوز لنا التفكير في امر العيش وقد وقع هذان العزيران في هوة الموت  
وهل يليق بنا ان نتركها طعمة لوحوش الفلاة ونسورها . فارتبها يدي فلما رأيتهما  
نصورت اني اخبرها بانني حنرت قبر زوجي وبني قبر زوجها . فقالت لم يبق مجال  
للتفكير فكيفنا هذه الحفرة ندفنها في موضع واحد فاجبتها ان اصابعي انجرحت لعدم  
وجود الآلات المعينة على الحنر فما اجابني ولكنها وضعت رأس زوجها على الارض  
واستلمت من وسطه خنجراً كان ملوئاً بالدم من محاربة البارحة وقالت لي ها كه ثم  
انطلقنا حتى اتينا الحفرة وكانت الارض رخوة فمهل حفرها بالخنجر فاشتغلت بالحفر  
بسرعة عظيمة وكنت احنر باليمين واخرج التراب باليسرى كماهر الحنار بن . فنصوّر  
ويل ان عملي هذا من قبيل العوبة الاطفال فاخذ في معاونتي ولاشتغاله بخيالو قلت  
له اذا ساوت الحفرة قدك اعطيك خبزاً وفي اثناء الحنر سمعنا من خلفنا صوتاً فخطر لنا  
خاطر بعيد عن العفل وذلك انا تصورنا ان الله اعاد الحياة لزوجي او صهري فلما  
نظرنا علمنا ان نسرّاً قرب من صهري ورفع رأسه للاكل ولما اطلع على وجودنا  
التى الرأس خوفاً وهذا هو الصوت الذي سمعناه . لا نلوموني ايها المطالعون على اوهامي  
هذه فان المتباين يموت الاعز ربما تدور في خلدكم امثال هذه الاوهام التي تشبه

الطيران على اجنحة الخيال في جو المحال

فقلت بنتي علينا ان نعجل في دفن هذين الجسدين فان الطيور تهجم لاكلها .  
فاشغلنا ببحر القبر فحفرناه حالاً وعظم علينا ما لم نربداً منه وهو ان نفارق ازواجنا  
فراقاً ابدياً لا تلاقي بعد وان نواربها في حجاب التراب ونتركها في بطن الثرى ولكن  
تلك سنة اودعها الله تعالى في الطبائع الانسانية ان ينسى ما بعد عنه من التواب  
ويفكر في ما يقترب اليه من الشؤن والطوارق . ولا ادري الا اني هذين الجسدين  
احق بالتقديم عند الدفن هل يجب ان يعاون بعضنا بعضاً في حملها الى الحفرة ام  
نحملها واحداً بعد واحد . فاجبرني حب الامية ان اترك بنتي المسكينة مع جسد  
زوجها لتستوفي حقها منه عند دفنهم وقدمت دفن زوجي فقربت منه واحتضنت جنبه  
وظنفت اسنمة حتى ادنيت من شفير الحفرة وكان وبل قد قبض على ذيل ايو

ولما رأيت اني مفارقة زوجي لا محالة اردت ان اخذ منه ما يكون تذكرة لي بعد  
فادخلت بدي في جيبه فما وجدت شيئاً ثم ادخلتها تحت مدرعته وفتحت من حنوبه هبناً  
مملوءاً من الليرات الانكليزية وشدته على وسطي . هذا هو الميراث الذي تركه زوجي  
لظليو البنيامين وهذه بقية ثروتنا الوافرة التي خلفها زوجي . وعلي ان اكفل امور ابني  
وبنتي واكون رقيباً لاعمالها حافظة لحالها وباحبذا لو كانت تدوم هذه البكرة عندي .  
وبالجمل اني نظرت الى زوجي فوجدته قد تبدل لونه وصار ذابلاً واصبح وجهه كأنه  
الشمع صفر ونحولاً وفقدت بشرته لونها الاصلي وعرفت شعور رأسه السود عند  
الاحتضار في آخر دقيقة من حياته ثم بردت بعد ذلك ولصفت بجبهته فارتسمت من  
لصوقها على وجهه خطوط مصفر . فاستمرت نظرتي برهة وتناثرت دموعي ونساقطت  
الى ارض التعاسة والحرمان وحينئذ قمت مذعورة وانحنيت عليه وقبلت جبهة بنبلات  
حارة شبيهة واردت ان اخذ من هذا الزهر المعصر ذخيرة لنفسي قبل ان يوارب  
التراب فوقعت شفتاي عند تقيلو على خصلة من شعوره الملصقة بوجهه فنصصتها  
باسناتي واخفيتها في جيبتي وحسبتها حرزاً حريزاً ونذرت ان احتفظ هذه الوديعة  
التييسة ما دمت في قيد الحياة

واخرجت من اصبعي الخاتم الذهبي الثمين الذي كان قد اعطانيه عند الزواج  
فادخلته في اصبعي واردت بهذا اني لا اخنار زوجاً بعد ثم ناديت بنتي وبعاوتها

التيت جسدي في قعر الحفرة ونقلنا جسدي ولبيام الى شفيرها ووضعناه فوق جسدي زوجي  
وبعد تلاوة الصلاة عن نفسيهما واريناها في التراب ورددنا عليها الاحجار واخذت بي  
عند ذلك خنجر زوجتها وما اخذنا منها شيئاً سواه ونحن نتوهم انها بالثقتان البنا  
وبعلمان باعمالنا وما كان خيالنا هذا الا جنون واللواتي توت ازواجهن يعلمن ان  
ما اقوله لا يبرده عليو . اما وبل اني فلما شاهدت تلك الاعمال الهزينة سألتني لم واريتم  
ابي وزوج اختي في التراب فقلنا له بهزيد حسنة وتوجع « مات ابوك وتوى بين الاحجار  
وتركك في جمرة الينم » . فرجع حينئذ عويلة وبكى بحالة صدعت قلبينا وزادت حزننا  
وفيما نحن في البكاء والابتن سمعنا صوت طائفة مدفع تبعها قبيل وقال في معسكر الهنود  
ثم انقطعت الجلبة وبعد مضي دقيقة سمعت صوت طبل كأن فرقة عسكرية تتحرك  
على خلاف الجهة التي كنا فيها فسررنا سروراً عظيماً لزعمنا اننا خلاصنا من شرور  
مجاورينهم . فلم يكن كالمح البصر واذا بدوي طبل قرب منا شيئاً فشيئاً فلمنا ان  
الاشرار انفسوا فسهين رجعت جماعة منهم الى القرية وتحركت اخرى الى السمات  
الذي نحن قيو . بيد ان سبيلهم على مقربة هذه المزرعة التي نوار بنا فيها

ولا يمكن لنا الاختفاء الا بخارج العادة . فوثبت بنتي من مقامها واخذت اخاها  
واختبات في تلك الحفرة ثم ثبت انا فوقها . كان هناك مبيتان تحت التراب ونحن  
الثلاثة فوقها نستعد لتخرج نقيع الموت . ومر الهنود وفيهم الفرسان والمشاة بنظام  
كأنهم في ساحة الاستعراض ومعهم عربية لحمل الاتقال واقبال ذات هوادج . وطال  
ذلك المرور الى ربع ساعة ولم يشعر اولئك الذئاب المنتهسة بنا وبعد انقطاع  
اصواتهم خرجنا من الحفرة

تصوروا الآن حالة ضعيفتي بنعيستين مع طفل صغير وقعنا في يدها المذلة في  
ارض العدو لاسانس لها ولا حارس لاتعرفان منزلاً ولا معاشاً . اذا جنها الليل ارقنا  
واذا اوضحها النهار قلنا . وما الذي تقدر عليو مخلوقة نعيمة عاداها الزمان وكل  
شيء يهددها تنتظر الموت في كل آن . لا الموت الفجائي والاجل الذي يدرك  
الانسان بغتة فيريحه ولا الموت الذي يقتل المريض بعد مدة في احضان عشيرته  
واقربائو . ولما اردنا المفارقة رميت بنفسي الى القبر واحتضنته والصفحت احماي يرد  
ذلك التراب فبكيت ونوجعت ثم افترقا وباله من فراق ألبم

ومشينا واعيانا على الله فعبنا من حوالي هذه القرية التي كنا فيها في الليلة  
الماضية ونحن في لباس فقراء الهند فلم يطلع علينا احد . وما زلنا على ذلك حتى قربنا  
من الشارع الكبير وفي جانبيه غابات عظيمة فاختمنا فيها ووقف بنا السير على روضة  
فالفينا عصا السيار ونغذينا باثمارها واشجارها حتى هدأت نفوسنا فغلب علي التعب  
وانهكني فوفعت واستولى علي النوم فتمت ست ساعات فلما استيقظت رأيت بنتي قد  
صنعت مظلة فوق رأسي زينها وبل بياقة من الزهور ثم عمدنا الى ابقاد النار نخلصا  
من شر السباع فجمعنا حطباً كثيراً ولكننا لاندرى من اين نجد جذوة نار فرجعنا الى  
معسكر الهنود ونجسنا موقدة وجدنا فيها جذوة انبنا بها واشعانا الحطب وثنا بجانب  
ذلك الموقدة . مضى الليل كله من غير ان نكتحل عيني بالكرى ولم ازل في مغالبة الاوهام  
ومقاساة عنها الشديد افكر في موت زوجي الذي كان حافظاً لنا راعياً لحوالنا  
حتى حسدني عليه المنون وخانني فيه الدهر الخؤون . ماذا تفعل امرأة مع طفل ان تلت  
سنين وبنيت مسكينة غرقت في بحور المصائب والفنن وحارت في بوادي المتاعب  
والحنن وهل تبلغ مدينة كاوان بورا واله اباد واذا كانت الغداة من اي سبيل  
يجوز لنا الذهاب . ان طريق اله اباد مع بعد احسن الطرق لاحتمال ملاقاتنا  
بعساكر الانكيز لكننا لا نعلم ان هذه المدينة في قبضة الطغاة ام هي باقية على  
ما كانت عليها وبعد التفكير عولت على الدخول الى مملكة اوده بعد طلوع النهار  
يا لتعاستي ويا لتعاسة جدي لو كنت حولت امري الى التفادير وما عولت على  
تدبير الضعيف في سلوك طريق اله اباد ما قتل ابني وبنتي وكان لي الآن حيث  
انا في باريس انيس لغصتي وجليس في غرفتي . وللانسان ان يحول اموره الى مشيئة  
الله ويطلب منه طريق النجاة والسداد . فانه ان عول على رأيه . وركن الى سعيه .  
يرى ما رأيتة . ويقاسي ما قاسيتة

## الفصل الخامس والعشرون

❖ رباط في الطريق ❖

ولما طلع النهار تحولنا الى جهة المشرق . قصد مملكة اوده وما زلنا نقطع



الطريق ونغوص في الرمال ونستشف المصاب والليل والهجرة قد استعرت واشتد  
وهيها فقلت لبيتي اننا منذ الغد نملك الطريق ليلاً وإذا اقبل النهار ننزل في  
غابة او نسكن في جنب ماء . وبعد مسير عدة فراسخ شاهدنا من مسافة غير بعيدة اثار  
رباط من الرباطات التي بينها اولو الترو في الطرق على تنفهم لتكون منزلاً لابناء  
السييل وموطاً للوافل . ولما اقتربنا منها رأينا انه لا يمكن لنا التواري في الغابات ولا  
نقدر على الرجوع لاننا صرنا في مرض ابصار اهل ذلك الرباط فرأينا ان نمشي اليهم  
بجراً رفعا لسوهم فينا ولما افضينا اليها وجدنا حوالي هذه النقطة جمعية قد اتسمت  
على هبات مختلفة بين قائم وقاعد ومنتبه وراقده . ورأينا في القاعة اناساً جالسين يدخون  
الترجيلة والغليون يستمعون وقائع الثورة واخبارها وفي مدخل الجدار عربات كثيرة  
وفي الجهة الاخرى مراكب واقيال وجمال تبطنت الارض واطالت الاعناق  
لاستنشاق الهواء . ورأينا في درب الحصار كثيراً من الموادج المخصوصة اركوب  
النساء بين مقبب وغير مقبب فظهر لنا ان رجلاً متمولاً نزل هناك مع اهله وسائر  
متعلقاته وهذه احواله وخدمه وحاشيته يفركون معه . وعلى اي حال اننا لم نكن نستطيع  
الاختباء ولا الرجوع . وكنا اذ ذاك على رهوة صغيرة تشرف عليهم فرأنا بعض اولئك  
المسافرين فاخبر الباقين فاطهروا الباشاة ودعونا اليهم وهم يظنون اننا من الهندبات  
اللواتي يجين من اطراف المغرب على امل ان يكون معنا خبر عن الوقائع فنظلمهم عليهم  
فاجبنا دعوتهم وذهبنا اليهم وما بيت بيتنا وبينهم عشر اقدام واذا بصاحب صوبة  
( صاحب الصوبة اي صاحب الرتبة العسكرية واصل الصوبة عند الاهداند الابالة  
كقولهم صوبة بتكال صوبة دكن ) تقدم الينا وساء لنا بالبتكالية « من اين تجيئون  
ومن اين انتم » فاجبتهم بتلك اللهجة « ركبنا السفينة من بلدة اكره وسافرنا فوق  
نهر جمنا فصادفنا قضاء الله وانكسرت سفينتنا وهلكت رجالنا ونجنا الله من الفرق »  
فما اثر جوابنا فيو وطلق ينظر اليها بكل ايمان وتأنق وفي أثناء ذلك وقع نظره  
على الاحذية الافرنجية في ارجلنا فاشتبه في امرنا فكلمني ثانية باغة من اللغات الهندية  
الصعبة على سبيل الامتحان فما فهمتها ابداً . وكان هذا الهندي من الاهداند الذين  
نصورت حكومة الانكليز في ايان ساطانها على الهند انها تمكنت من جذب قلوبهم  
فتوهمت انهم تركوا تعصيم الملى من صميم افنديهم فالبسنتهم ملابسها العسكرية وقلدتهم

وسامانها وهي غافلة انهم وان اظهروا الطاعة والانقياد لكنهم لا يتفكرون عن عصيتهم  
وان اللين الذي يبدونه في معاملاتهم انما هو من قبيل لين الافاعي  
كان هذا الرجل في الثلاثين من عمره تقريباً وما رأيت في مدة سكي الهند رجلاً  
مثله في مهابة الصورة لانه كان خشناً طويل القامة نحاسي الوجه نظره كظفر النسر  
متأن كثير الدقة والحذر يخط حاجبيه مطاً كأنه موت تجسم في زي انسان . وكان ينظر  
الينا ضاحكاً مستخفاً كمنور براقب فاراً ويسن اظافره فاذا صاده لاعبه وداعبه قبل  
أكله ويمزق شكله هكذا وجدناه مستعداً لازدرادنا . آه لا أنسى أبداً وقاحة وجهه  
وقضاظة حالته وقد ارسل بك السرى وراء ظهره وقبض باليمنى على منرفة مقبضها  
من الذهب ومشي الينا مشية الخيلاء وهو يلحظنا شراً . وبوسعنا تدقيقاً ونأماً .  
فظهرت علامات ارادته بكل وضوح وكيف لا والعيون رسل القلوب

وللعيون رسالات مرددة تدري العقول معانيها وتخفيها

اما بنتي فتوردت وجنتاها من نظرتي الخبيثة ونأملت ملكة عصمتها ونصب  
عرق الخجل من جبينها فلئت رأسها بهرق الحياء وقد كان القواد وافراد الجند  
الهندي قد تعاهدوا اذا التقوا بنساء الانكليز ان يبتكروا عصمتهم ويتكلموا بهن والعباد  
بالله . وهذا الرجل استهوته ملامح الن ففتن بها افتناناً شديداً فجعل يخالسها النظر  
وبريد ان يجعلها لنفسه من غير ان يعرف رفيقاه ففرب مني وقال لي كلمات تمنعني  
عني من ان اذكرها لان الخباثة والدناءة نظران منها . وقد سمعت من قوارص  
نحوه وقوارع كلامه مالا يحتمله قلب بشر .

فما ترك وبلى مجالاً له لينم كلامه لان هذا الطفل الغيور تعجب من ذلنا بين يدي  
ذلك الهندي وقد تعود ان يرى الهنود وقواقين ايدينا بغاية الأدب . فلما رأى الهندي  
انتصب امامنا متكبراً بلاطفه ويمسح وجهه بانامته السود ويضع يد علي رأسه قال له  
بغلظة « تسح عنا » فماخرجت هاتان الكلمتان من فيه الآ واحاطت بنا اولئك الجماعة  
دفعه واحدة وأورثت هذه العبارة الجارية على لسان طفل صغير انقلاب الاحوال  
واضطراب الاقوال فكنا كفرض تنتقل فيه المنايا وهم تبادر المصائب وقد خيل  
لهذا الجمع ان عساكر الانكليز حملت عليهم بنامها او ان قبيلة من ديناميت انفجرت بينهم  
فصحب بعضهم مسدسة وانتضى الآخر سيفه وصوت طائفة بنا دفعها نحونا ووجد هذا الهندي

ايضاً سيفه ووقف امامنا وقد امتنع لونه واكفهر . فتصورت لأول وهلة انه يريد ان يجهينا وما كان الامر كما ظننت فانه لما رأى انهتناك سرنا وانتهاك سترنا وتحقق اننا انكليز بنان وقد هجم رفاقه على طعمه الخاصة وهو لم يتمكن من اماله الساقلة ولا بدلة من ان يقبل شركة رفاقه في هذه اللقمة فتطايرت شرارة الغضب من عينيه وامتلا غيظاً وحنقاً وانفق معهم علي اذبتنا . وفيما نحن في ذلك واذا بعدة من الهنديين وثوبوا على بنني وثوب الهند على الغزال . واوبلاه من هذه الحادثة الشنعاء . اخذوها وابعدها عني ليفصلوا غصن عنانها . وبعد ساعة رأيتها نجت من ايديهم وهي تنر وتستهيب وفي أثرها رجلان يتعقبانها لنفناء ما ربهن وشهواتهم البهيمية

فالت بنني التعيسة نفسها في خيمة مضروبة صادفتها في طريقها ومن حسن الاتفاق ان تلك الخيمة كان فيها بعض الهنديات النجيبات فوجدت بينهن امرأة مسنة فترامت عند قدميها واسترحمتها فوضعت تلك المرأة يدها على راس الن — ارادت بذلك انها اجارنها . ولما شاهد هذان الرجلان دخولها في خيمة النسوان ما اجترأوا على الدخول ورجعا فامضت بضع دقائق حتى احاط الهنود بالخيمة من كل الجوانب وهم طامحو الاحاط كثير والقطوب والعبوس بصرخون باعلى اصواتهم ويخاطبون هذه العقيلة المسنة ويقولون « ايها السيدة المعظمة بحمك علينا ان تفضلي وتستعيني عرابضنا ولا تجيري هاتين الجاسوستين في ظل رحمتك انهما لوستا مستخفين هذه الرعاية انذني لنا لتخرجها ونصليها فنشني قلوبنا » . والراجا الذي كان قد اتخذ هذه النقطة منزلاً (الراجا والراجة بمعنى السيد) من اعيان هندستان ومشاهير متبوليها اسمه « موموكجي » ينطن مدينة اله اباد وقد تبع سائر الراجات حينئذ في نشر الوبة العصيان . وتحرك بقصد الاتصال بامثالو لينجد معهم على الانكليز وهذه الامراة المحترمة التي اجارتنا امة

ومجمل القول انه ما مضت على هذه الحماية برهة حتى تسلطت علينا داهية دهباء وذلك ان تلك المرأة الشقية قطعت حبال رجائنا بقساوة وغلاظة . لاننا لما وردنا خيمتها كانت مشتغلة بقراءة الادعية فا ارادت قطع الصلاة ولما فرغت وفهمت اننا من الانكليز اخرجتنا بغاية الكفة فاشتعلت نار الفتنة ثانية وارتفع طوفان البلايا بناحاطت جماعة الخدمة وافراد العساكر بنا واتشعب بيننا وبينهم الجذب والدفع والاختد

والرد . كانوا يجروننا طوراً على الوجوه من موضع الى موضع وطوراً يرفسون بطوننا  
فصرنا بينهم كاعشاب ياتعة تهبها الريح الى كل الجهات . وما يكون قط امير في ابدي  
الجلادين في حالتنا ولو صلونا او القونا تحت اقدام الثيلة لكان اسهل علينا من  
هذه الصدمات . فتهزقت بقية ألبسة خلفه كانت على ابداننا من المقاومة لتلك  
المصادمة . ومن الصدف الحسنة انه انقطع وقتئذ الهيمان المملق بالليرات من وسطي  
وانثرت مسكوكاته فتركونا على النور وانكبوا على النقاطها

وفي أثناء اشتغالهم بذلك ضمت بنتي وابني الى صدري ضمّاً شديداً ريثما فرغ  
هؤلاء السفاكون من جمع النفود وقصدوا تنريفنا بكعاب اسنهم وظهات . بيوفهم  
فحببونا هذه الحالة الى شفير نار موقدة فلما رأيناها ارتعدت فرائصنا وعلينا انهم يريدون  
احراقنا فانقطعت عري رجائنا من كل الجهات . لاننا وجدنا انفسنا نصب الحنوف  
ووقع نظري حينئذ على ذلك الهندي الشفي الذي كلمنا اولاً وتأسفت عن عدم  
انقيادي لاشارتو وكلما اعتذرت اليه او استرحمته زاد قسوة وغلظة . وكان الراجا  
جالساً في نافذة من نوافذ غرفته المرتفعة المطلة على مقبلنا مع حنوته بين يديه وحرس  
على رأسه للتنرج بحالنا . ووقف ذلك الرجل امام منظرته عن بعد لا تدري  
هل هو لا يقدر على استخلاصنا ام هو يعاندنا لعدم رضائنا بمعاشفتو فلا بهمني بالحاحنا .

## الفصل السادس والعشرون

### ❖ وصول الدرويش ❖

ولما رأيت الرجاء مقطوعاً والموت واقعاً لا محالة عمدت الى خنق طفلي لتلا بهتلي  
بذلك العذاب الاليم . فما بقي من اخنناق طفلي الا دقيقة واذاً بشخص اخنطته من يدي  
عنفاً كأنه يريد استخلاصه فتركنه له راجية حيانه ونظراً لكثافة الدخان الحائلة  
بيننا وبينهم ما عرفت ذلك الشخص . وفيما نحن في هذه الحالة واذا بيد اخذت بكنتي  
وابعدتني مع بنتي من النار . فعابنت حينئذ حالة البعث والنشركاني حيبت بعد الموت  
وشاهدت تلك العوالم التي سمعت وصفها في صبوتي فاخرجتنا تلك البد من حومة  
المعركة ووضعتنا على ربوة صغيرة هناك . فمسحت عيني فرأيت رجلاً وقف امامنا كسد

سيد بل هو بكل نجاة يكلم هؤلاء بالهندية وهم ينكسون رؤوسهم وإبصارهم ويخضعون  
بين يديه خضوع الاسرى بين يدي الانصار . وجدت له عندم نفوذ سيد مقتدر  
يحكم على غلامه وخدامه . فافاه ذلك الرجل بكلمة الا وسجدوا امامه تعظيماً لاحكامه  
وانقياداً لاهلامه فتوسمته وتقرست فيه فاذا هو الدرويش المعهود الذي سبق القول  
على نومه على شاطئ . حمنا وهو الذي اعطينه الدراهم بواسطة وبل فقد اشترى اليوم  
نفوسنا بهذا الثمن الجنس وحسن دماءنا مكافأة لهذه الصدقة الزهيدة واعاد حياتنا .  
وشتان بين الثقلين

يا للعجب والقدرة التي شاهدتها من ذلك الدرويش الذي يظهر من قذارة  
جسمه وسرباله انه غائص في الاوساخ والادرن بحيث تستفذر رؤيته الطباع  
متلبد الشعر كثيف المخاط دنس الاهداب كثر اللحية رث الهيئة . ومع ذلك فهم يتبنون  
ببركات اناسه ويندونه بالاموال والارواح . فانه مجرد قوله لم « ان هؤلاء الثلاثة في  
حماني » تبعوا عنا ووقفوا على مسافة منا ونصرعوا اليوقائين « ايها السيد الكريم ايها  
المولى نخع عنها . لم نترحم على كفار الا فرنج الذين تسلطوا علينا منذ قرون وسنين ونحن  
صاغرون . ان اولئك الظلمة لابرعون حرمة مذهبنا ولا يلاحظون شرف ديننا ولا يوفون  
بعهدهم التي ضمنوا بها رفاه حالنا بل هم يختمون بضاعتنا بالمكاييد ويسرقون اموالنا بالاحيل  
والشعبذة . لا يحترمون مساجدنا ولا يؤدون حقوق طلائنا . اطلقوا ايدي الاعتساف في  
اعراضنا وجعلوا اعزتنا اذلة . وبدور ايامنا اهله . يختمون قسوسهم على دس  
الدسائس ليخرجونا عن ديننا القديم الذي تدبنا به منذ الف سنة . وقد زرعو بذر  
النفاق والخلافة في قلوب سلاطيننا وراجاتنا ليتسكلوا من بلوغ ما ربههم . فخلت  
ايديهم عن سلطنتهم الموروثة واستفلام الوطني . ابادوا غيرتنا المليئة بنواين  
المسكرات وحرية مبايعتها . سلبوا ذخائرنا ونودنا بالبنوك والمصانع . وهم يعدون  
انفسهم مع ذلك ملة متمدنة راقية مراقي التربية ويعدوننا ملة وحشية فيعاملوننا  
معاملتهم البهائم والدواب ونحن عدم ارضل الخلوقات . واخص الكائنات  
اتركها لخرقها في محضرك ومحضر هذا الراجا ونشفي قلوبنا المنكسرة من حزازاتها  
القديمة »

فما اجابهم الدرويش الا بقوله « لا يمكن لكم الاقتراب منهم بوجه من الوجوه

لانهم في ظل حراسي « كنت اعلم قبل هذا ان الدراويش لم افتتار خاص على الهنود لكنني لم اسمع ان درويشاً بطاع الى هذه الدرجة . وبعد تلك المكاملة تركونا وبعثوا عنا وانطلقت النار الموقدة هناك ونام الدراويش امامنا في عرض الطريق . فرفعت راسي الى السماء وشكرت الله تعالى لانه جعل هذا الرجل وسيلة لحباننا وسبباً لنجاتنا من حيث لا نعلم

في الهند دراويش لا يخصصي عددم وربما زادوا على مئة الف وكنت في مدة اقامتي في تلك المملكة قد رأيت عدة كثيرة وراعينهم ولا ادري كيف التفينا مع هذا وجاملناه قليلاً فاشترى بتلك النفود نفوسنا . وليس هذا الا من فضل الله وتدينه والشكر حينئذ لا السبب لا السبب . ولما تلافينا مع هذا الدراويش عند ساحل جننا ولم تكن ظهرت وقتئذ اشارة ثورة ولا اشارة فتنة فسمعنا منه ثلاث عبارات ( الاولى ) لما تغير عليه صهري وحكم على خدامه ان يبعده من وسط الطريق ويطرحوه في النهر قال « مهلاً ستم حربة الطرق ويسهل العبور لصوف الخلائق » وصار الامر كما قال فانفتحت السبل للهنود وسائر الشعوب والناس يروحون ويفدون فيها من غير ان يكونوا تحت قوانين التنظيم والتأمين . ( الثانية ) لما وجه خطابه لزوجي قال « ستغلب عباد الله على الكفرة » أليس المسلمون قد غلبوا علينا ؟ وهم يعتقدون انهم على حق ونحن على ضلال . ( الثالثة ) لما اعطاه ويل الروية اخذها وقال ايها الطفل هذه الصدقة التي تصدقت بها ستكون فدية لك . اما الاولى والثانية فانها تحققتا بدون نقصان او زيادة . اما الثالثة فهل تكون هي ايضاً مفرونة بالحقبة فيقتل طفلي ايضاً مثل ايو و زوج اخي . ومع اننا خلصنا من موت عاجل فاني لما تصورت هذا شرعت في البكاء والعيول وكنت ابكي واتوجع وافكر في عاقبة امري وعجائب ما قدر لي واذا باصوات مختلطة وغوغاء وجلبة فعلمت ان المسافرين لما انقضت مدة اقامتهم رأوا الوقت مقتضياً للمسير وهم الآن على وشك الرحيل . وفي اثناء ذلك ازف النرجال وشدت الرجال فمركت كتيبة عسكرية من مشاة الاهداند ثم خرج الرّاجا مع اتباعه في مركبة فاخرة تليها الخوت والموادج لزوجاته واهالي حرمه ثم الافياء الحاملة للرحلات في الطريق

وكان عبور هؤلاء من جانب التل الذي كنا عليه ولما قربوا منا هبّ الدراويش

من نومو وصعد على صخرة ونطق بكلمة رافعاً صوته فنزل الفرسان من مراكزهم  
وقبلوا بك واحداً بعد واحد ودفعوا اليو دراهم معدودة . وروا على الترتيب حتى اتى  
دور الراجا والجماين والمشاة فنلقوه بما تيسر لهم من درهم وخبز ولباس . ولما مروا بتامهم  
ناداني الدرويش واعطاني كل ما اجتمع عندك فوجدت مقداراً كثيراً من النفود  
والاطعمة والملابس ما يكفيننا بضعة ايام . ذلك هو المحل الذي ابتلينا فيه بالمهلكة  
في اول ورودنا الرباطات وسراي التوافل التي تبنى في شوارع الهند .  
اما وضع تلك الامكنة فعبارة عن قضاء محاط بجدران محكمة لها باب من طرف واحد  
وفي داخلها بيوت ومساكن لحفظ الانسان والحيوان من الحر والبرد والامطار الهاطلة .  
اما حجراتها فانها فذرة تشبه مخازن الخاريس لها فرش ولا خدم ولا حفظة ولا فيها  
شيء من دواعي التعيش او الاستراحة مثل دور الضيافة التي للافرنج . وهي معمورة  
ما هولة عند نزول المسافر بن وخربة مشجورة بعد ذهابهم

هذا الدرويش مع قذارته لم تشمئز ننوسنا من روائح العنفة ولا نفرنا  
من اوساخ التننة . بل كانت سببنا عندنا حسرات وقبائح محاسن وكنا من صعبينو  
في روض نصير ومن رائحو بين مسك وعبير . فدلنا الى داخل الرباط نتمياً  
لجملنا فوصلنا الى حجرة صغيرة في وسطها عين والحجرة مستحكمة لوقوعها خلف الابنية  
والذي يريد الدخول اليها لا بد له من العمور في دهليز طويل وعدة حجرات  
وكان لها باب اذا اغلقه الداخل لا يتمكن احد من ان يدخلها . اوصلنا الى هناك  
وخرج برهة ورجع بعد قليل فرأيت قد ملأ غرارة كبيرة بالعلف اليابس والخبث  
فرش الارض بها ثم قال لي « عندك الآن ذخيرة خمسة عشر يوماً فلا تخرجي  
مع بنتك ووطنك من هذا المقام الا حتى يرحمك الله ويحصل لكم فرج  
قريب ونصير اعداؤكم احباباً او نمر قافلة من ابناء وطنكم فننقذكم » ثم اودعنا  
ومضى . وقينا في ذلك المقام برهة بلا حراك لولا اعناقنا وتطاولة واذان صاغية  
فلم نسمع الا طنين الحشرات . ومع ما كابدهناه من انواع العذاب قضينا ليلتنا  
هذه في هذا المكان باستراحة وسكون . وفي الغداة شرعنا نفحص جوانب ما متنا  
فوقعت عيني على باب صغير في زاوية من زوايا الحجرة فنلت لبت شعري الى ابن  
بوذي هذا الباب وهل يمكن فتحه . فاردت كشف المجهول وتلك فطنة متمكة تحرض

الانسان على استطلاع الخفايا . فحسبنا اولاً اننا لنتمكن من قصدنا بسهولة فكسرنا قفلة  
ومع ما سعينا وصرفنا من الجهد في فتحه ما ظفرتنا يوماً ابداً ثم تعلقنا بالمثل القائل « من  
فرع باباً ولجّ ولجّ ومن طلب شيئاً وجدّ وجدّ » وصممنا على اجراء النصد  
وظالت مدة اشتغالنا بهذا اثنا عشر يوماً الى ان اخرجنا الباب من مكانه صباح  
اليوم الثالث عشر بعد بذل الجهد واستنراغ الوسع ونحن نتصوره باب سعادة فتحة  
يفتح الابواب لبعثتنا من مضيق التعاسة ويوصلنا الى منزل الهناء .

## الفصل السابع والعشرون

### ❖ قافلة تعيسة ❖

وما كان الامر كذلك لاننا وجدنا خلف الباب قاعة صغيرة فعلينا انها مدخل  
خصوصي للرباط وهي محل اقامة مستنظ الرباط وقد اغلق ذلك الباب بعد حركة  
القوافل وذهب هو ايضاً فيبتسنا من نجاح ام لنا . فقالت آكن لانياسي لان الجدار  
المحيط بهذا المنام غير الجدران المحيطة باطراف الرباط وهو اذق منها بناء وكان  
الامر كذلك ففتحنا منفذاً من هذا الجدار فوجدنا صحراء واسعة الارحاء  
ممتدة الانحاء ذات خضارة وطرارة فيالها من ساعة ما احسبها واصفاها ورأينا  
من مسافة بعيدة جادة دقيقة تنتهي الى هذا الموضع بخط مستقيم بحيث لو  
اراد المسافرون ان ينزلوا هنا لم يكن لهم بدّ من ان يروا في هذا الطريق ثم يردوا  
الرباط . والمظر عدم الوجود في الصيف فلا نجود السماء بمساءً ابداً . ولذلك  
فالمسافرون لا يبيتون في داخل المنازل غالباً فاذا بلغوا منزلاً حطوا رحالهم  
في خارجه ولجأوا الى ظل الجدران . فليس علينا في مدة اقامتنا هناك خطر من العابر  
والمتردد وقد وردت عدة قوافل وصدرت من غير ان نطلع بنا

فقالت بنتي لما وقفنا وراء الجدار فلاحسن ان نهبى تحت الجدار مخجراً وسيعاً  
لتخرج منه الى الغابة والصحراء لتحصيل شيء نفتدي به . فقالت احذري من قصدك فانا  
لانا من دخول « مانيلا » الحبة المشهورة في الهند وهي كبيرة هنا ويكنينا هذا  
المنفذ لرصد الطريق بضعه ايام على اننا لا نحتاج لتحصيل الثوت في عاجل الحال .



هذا وكما نرصد الطريق على التوالي ننظر وصول فوج من عساكر الانكليز او ورود قافلة نمتثل لوائها ونعتم بولائها . مضى على ذلك المنوال اسبوع وفي اليوم الثامن ايضاً اشتغلنا بهنا من ابتداء الطلبة وكانت بنتي في جاني قد فتحت منظرًا آخر . فمضت اربع ساعات وما رأينا في طول الطريق وعرضه احداً وانعبنا اعيننا وافئدنا اوقاتنا فيما لا طائل نحته . وكان ذلك لعدم وقوفنا على قوانين السفر لدى الاهداد والافرنجيين الذين يعاشرهم . ولو كنا نعلمه من اول الامر لما قاسينا نعب الانتظار فان الهنود يتوخون في نعية الرباطات والمنازل والمناهل ترتيباً خاصاً بحيث ان المسافر اذا خرج من منزل يصل بعد اربع ساعات الى منزل آخر ليكون محفوظاً من المشقة حتى اذا نام وانزاح تحرك من منزله هذا الى رباط آخر ولا يزال كذلك في قطع الطريق حتى يصل الى مقصد .

وكانت بنتي احداً مني بصرا لحدائث سنها فبعد ان تفرست هنيهة قالت كافي اري خطاً اسود في انتهاء تلك المسافة بقوى ويقرب منا ويدا ويدا ويعن بخاطري انها قافلة عظيمة . وبالميت شعري هل تكون هذه القافلة انكليزية فنشرح لها ام هي قافلة الاجال والخوف التي نعد منا مجرد وصولها ويحتمل ان لا تكون كذلك اذ لا يمكن ان تكون مركبة من المكارين واحمال التجارة . بل يمكن ان لا تكون كذلك ايضاً وبلوح لي انها مشتملة على جماعة من النعساء الذين انقلب مجنهم على ظهره مثلنا بفرون من ايدي الاشرار . والذي اوقعنا في تضارب الافكار سواد هذا الخط المرئي فان اهالي تلك القافلة اذا كانوا من الاهداد فاهم ملابس بيض والايض لا يري اسود . واذا كانوا من منهزمي الانكليز فملابسهم تكون حمراً كما هو المعمول المتداول . وخلاصة القول ما زلنا في تردد واشكال والقافلة تقرب والسواد يشند شيئاً فشيئاً واذا ببنتي صاحت قائلة « قرب القادمون وهذه القافلة مركبة من خمسين او ستين امرأة هن البسة طوال سود ومعهن عشرون نمرًا من عساكر الانكليز بعضهم في اول القافلة والباقيون في آخرها »

فلما اصبحنا على مسافة قريبة من مسكننا حصل لنا من ملاقاتهم طرب وانسياط حتى كدت اطير اليهم باحثة الاشواق ولا غرو فان الغريق يتشبث بكل عشب وصحت باعلى صوتي وقلت هذه النسوان من الراهبات الكاثوليكيات اللاتي يسكن

في دهلي وأيقنت انه قد اثمرت غروس النبي واقمرت ليالي السعادة فعليما ان  
 نستقبلهن بكال الاستعجال . ولكن آه ان ارتياحنا لم يطل اكثر من لحظة وجرت  
 افلام النضاء على خلاف امالنا والانسان لا يدرك كل ما يتمناه وتجري الرياح بما  
 لا تشتهي السفن . وذلك اني لما تأملت باصحاب القافلة وجدتهم عاجزين عن افاذا  
 فقلت ضعف الطالب والمطلوب فان اولئك الامهات والراهبات الروحانيات اللاتي  
 حديناهن حور الجنان او ملائكة الرضوان ورجونا منهن وقاية حياتنا كن شريكات  
 معنا في الشدائد وما العماكر الذين معهن الا شرذمة اصبوا بالمجراح وانكسرت  
 اسلحتهم وتلوثت عمامهم البيض بالدماء ففروا بهن الحالة المحزنة من الحرب ولما حطت  
 تلك القافلة التعبسة رحالها بقاعة الرباط خرجنا من الحجرة وتعلقنا باذيال الراهبات  
 وكلناهن بالانكليزية ونحن نحسب جماعة من الانكليز يلغفون بين وتحصل لاهالي  
 القافلة قوة عاجلة من انصالم

وبعد الاستنهام ظهر لنا انهن خرجنا من دهلي يطلبن الا كن ليتفقن مع سائر  
 الراهبات المضمعات فبو لذهبن الى اله آباد فالتقن في الطريق بجماعة من الطاغاة  
 ورأين الطريق مسدوداً من تلك الجهة فعتفن الى مدينة كاوان بور وفي اثناء  
 طريقهن جمعن عجاج المساكم مع بعض النسوان اللواتي خالصن من معتل مراد اباد  
 وفرخ اباد خدمة للانسانية ومراعاة للنوعية حتى انتظم عقدهن واجتمع لتيهن وما  
 قولك في قافلة مؤلفة من النساء العاربات المنكسات الرؤوس وعليهن ملاح الحزن  
 ومظاهر التأثر واطفال في افواههم ائدية المنايا وفتيات كوت الوحشة قلوبهن  
 وشمت النجيمة جيوبهن . ورجال قوض الدهر منارهم . واخذت الحوادث نارهم  
 يفرعون شمس الحياة ويتمنون راحة المات . اولئك الثيبات والابكار التعبسات  
 والعجائز والعرائس البائسات مع وقوعهن في شباك المضاعب كن في رجاء عظيم ان  
 عساكر ملكة انكلترا وامبراطورة الهند وكنايتها الخفيفة التي ملأ الآفاق والامصار  
 صوت صولتها وقهر الاصقاع والانحاء سوط سطوتها لا يتدراحد ان يتغلب عليها وانها  
 منال الظفر وتقع التنن وتنفذهن من المهالك

بالهنا الامل الباطل والوهم الذي ليس له حاصل . تنوس معدودة في نعاسة غير  
 معدودة . بعد ما وقعوا في مغالب الهنود كيف يؤملون الظفر وبأمنون من طواريه

الخطر هل تنتج شوكة امبراطورة الهند نتيجة لولاء النعماء الذين يقاسون ضمير الخسف والازدراء وهل يرتق فتق تلك الغابلة العظمى بهذه الاوهام الناشئة عن التمنيات البشرية . كلاً :

ولا يخفى على المنتقدين ان الظلمة يتحلون بحمل النزور وحلي الحبل لاستيفاء شهواتهم الخبيثة وهم على اقسام : فان طائفة منهم لا يكتفون بلوم لائم وعلمهم شن الغارات جهاراً . ليلاً ونهاراً . يترددون في الامصار . مثل المغول والتاتار وطائفة يتلبسون بلباس التليس . يسلكون طرق التدليس . يستمسكون بعروة التمدن وصفاء النية ويهذب الاخلاق ويعتصمون بحبال التربية ويحسبون انفسهم محبين لجنس البشر فينتفضون سيوفهم ويهجمون على الملل والاقوام الذين لا يعرفون دساتيرهم فيوقعونهم في الشباك ويتمكنون من مقاصدكم باستعمال المكاييد والالعب المسماة بالحيل السياسية فليحترز المرء من هؤلاء المتمدنين الجاهلين فانهم يدعون العدالة وهم على ما هم عليه . تلك حالة الانكليز مع الهند والهنديين فان الانكليز كانوا يحسبون الهود قبل الثورة احقر الملل . وينولون اولئك كالانعام بل هم اضل . ويطنونهم امة وداعة ومعشراستكانة . لكن الهود لما شاهدوا اجحاف انكبتهم واعنساها اظهروا لولاء المتمدنين انهم عند الضرورة يجتمعون لاستخلاص رعايتهم من قيود العبودية وينفضون العار عن مناكلهم واعطافهم . وانظر ما أسرع ما تبدلت تلك الاستكانة بالانفة والوداعة بالخشونة . فاقبل ان يرضوا بالذلة فزالوها بمراهف السيوف وستان الرماح

وعند ذلك فهم المتمدنون رصانة عزيزتهم وصلابة شكيمتهم وهم لا ينسون تلك الواقعة ابدًا وما احسن ما قال بعض الحكماء .

لا يستخفن التي بعدوه ابدًا وان كان العدو ضئيلاً

ان القذى يؤذي العيون قليلة واربما جرح البعوض النيبلا

على ان الهود ليست بينهم وبين الكاثوليكين عداوة لان القسوس والرهبان والراهبات كانوا يعالجون مرضى الاهداء وبربون اطفالهم النساء لمرضاة الله كما ان اولئك النسوان مع كونهم في اقصى درجة الانبلاء جتمعوا جمعاً كبيراً من الذكور والاناث في ظل رعايتهم للذهاب الى ما من كما نؤمننا بآناً قبيل هذا : فارادوا الديوتنة في هذا الرباط ثم الحركة منه عند طلوعه الصبح .

## الفصل الثامن والعشرون

### \* الفوج الهندي \*

وقد قدمنا انه لا يتبقى للمسافر الاقامة في الحجرات في فصل الصيف لاحتباس أهويتها بل ينامون في ظلال الجدران . اما تلك النافذة فلما وصلت اهلها الى حجرات الرباط اتخذوها منزلاً على خلاف الرسم المعبود وما اکتفوا بذلك بل اغلقوا ابوابها من الداخل حتى ما بقي الى ظهر اليوم صامت اوطاق في قاعة الرباط . نامت المرضى في سجون والجاريح في اخرى والصبيان والسوان في واحدة واستراحت الراهبات في المرتبة الثمينة فاصبح المكان اشبه بالمشفى . وبعد برهة قرب وقت الصلاة فاتصّب النسيب المسمى بول قائماً للامامة واقندى بـ كل فرد من افراد الجماعة من بروستاني وكاثوليكي من دون استثناء . وهذه العبادة لها مزية خاصة في احوال الشدة فذكروا الله مخلصين له الدين ناسين اختلاف الطرق وفروع المذاهب الداعية لتفريق الكلمة الجامعة الدينية واشتغلوا بابقاء وظايف العبودية بخضوع وانتهال من غيران يعتقدوا ان طريقهم التي يسلكونها حقة وغيرها باطل . وبعد الظهر ثلاث ساعات نزلت في حوالي مسكننا هذا طائفة من السبارة وبعد ساعة استأنفوا المسير في طريقهم من غيران يطلعوننا . وان كان الواردون اقل منا عدداً لكننا خفنا ان يخبروا الاشرار بقامنا و يشاركهم في الاغارة علينا ومن الاتفاقات الحسنة انهم مروا من غيران يتنبهوا لنا فسكنت قلوبنا . ولما دنت الشمس من الغروب ملأنا المشربة والاواني بالماء واعددنا علوفة الدواب واعدنا انفسنا بالمبيت تلك الليلة في امان على ان تصبح براحة . وفي اثناء ذلك اطلق استخفظ الرباط مصراع الباب وفيما هو يغلق الآخر رأينا بخني نفسه خلف الباب وهو يقول « اني أرى فرساناً يتقدمون » فنظرنا الى الطريق فوجدناه صادقاً في قوله فمن اي الفرق هؤلاء الفرسان يا ترى هل هم من ابناء وطننا ام من اعدائنا . ورأينا عليهم الملابس الحمر وكانت العساكر الانكليزية والهندية كلتاها تلبسان هذه الالبسة فلم يرتفع حجاب التردد والوحشة عن ضمائرنا . وكان بين جماعتنا المحصنين هناك رجلان سالمان احدهما رئيس الموسيقى العسكرية سابقاً والآخر بنجاه باشي ( بنجاه باشي اي رئيس خمسين نفرًا من المشاة او الفرسان مثل بوز باشي ودهباشي . وهذه الالفاظ

مركبة من التركية والفارسية ) فوضعناها خلف الباب للعناية بحيث لا يخرج من جهتنا صوت صهيل فرس أو نهيق حمار فينبه أولئك القادمين الى وجودنا فشدنا افواه الدواب بالحبال لأننا كنا نعلم انهم لا يعرجون الى الرباط على ما جرت به العادة طالما كان الانسان مغموراً في مجور النعمة فانه يظل غريباً في نوم الغفلة وإذا ابتلي بنقمة أو اعتزته نكبة وكان ذا رأي صائب وفكر ثاقب يحترس من المخاوف والتوازل اشد الاحتراس . ولكوني ابتليت بالسوانح والمصاعب والشدائد والمناعب اكثر من رفيقائي لم استطع الجلوس بل شاركت ذنبك الرجلين في ملاحظة الطريق وكان ابني يلعب في ساحة الرباط مع الاطفال وبنتي تتحدث مع النسوان فما مضت دقيقتان حتى سمعت البنجاه باشي يصبح صياحاً مخيفاً وقد نلعت لسانه من الدهشة واستولت الرعدة على يديه ورجليه وجعل ينتفض كقصب يرتعد في هبوب الرياح العاصفة ثم اتبته وقال هذا هو النوج الهندي الذي كنت مشتغلاً في خدمته . فكان لتولي وقوع شديد على نفوسنا على انه كان لنا قليل رجاء . انهم اذا عرجوا بنا يستريحون ساعة ثم يذهبون

فحدث غير ما املناه فان النرسان حلوا رحالم ونصبوا خيامهم واخذوا سرج الدواب والقوا عليها الجلال . ثم اوقدوا ناراً واشتغلوا بطبخ الغذاء وظهر انهم يريدون الاقامة خارج الرباط وليالي الهند في فصل الشتاء اثنتا عشرة ساعة بسبب قربها من خط الاستواء . وليت شعري هل يدخل الرباط احد من تلك الجماعة في مدة اقامتهم هنا وهل يرتفع من دوابنا صوت بينهم . البنا نعوذ بالله من ذلك . انقضت ساعة وما علا صوت فدخلت صحن الرباط ووردت حجرة الجرحى فرأيت التيس قد هباً اسباب عبادته وبسط سجادة طاعنو يريد ان يصلي صلاة الفداس وكان ذلك امراً جديداً عندي لاني برونسناية وهو يصلي على طريقة الكاثوليك . ولما كان النصد الاصلي تقدم واجبات الصراعة الى المعبود الكهنوتي اتفقت مع الجميع وصلينا معاً . وفي اثناء الصلاة صهل فرس خارج القاعة فاجابه فرس من الداخل فضملت الافراس كلها دفعة واحدة فاجابها اصوات دوابنا وتحرك النرسان عندئذ الى الرباط وكسروا الباب ودخلوا كالسيل . الجارف الى حجرة الجرحى وسلوا سيوفهم وكان بول مشغولاً بالصلوة فاطلقوا مسدساتهم عليه

فامتلاً النضاء بدخان البارود . ومن العجائب ان الرجل مع كونه هدفاً الرصاص  
 ما زال واقفاً منصّباً فمهوا به ليقتلوه فتساقطت الراهبات عند اقدمهم والتسن العنق  
 عنه . فصاح رجل متعصب من الاهداد وقال ليول بالغة الأوردته « ارني  
 معبودك » فاخرج بول الصليب من عنقه وقال « هذا هو معبودي ونحن اتباع هذا  
 الرسول لانكثرت بالموت ولا نبالي بالقتل ولا نريدنا الشدائد الا تمسكنا به » لقد  
 صدق فيما نطق به لان رؤساء الاديان والملل لولا الشدائد والاضطهاد لم تخرج  
 شرهم ولا علت كلمتهم وبذلك تأسست دعائم المذاهب حتى لمعت نجومها المشرقة  
 في ظلام الغياهب

ثم قال الهنود للراهبات نفعو عن اراقة دمانكن على ان تؤدين فدية من النقود  
 فنادين قائلات لو كان لنا مال ما وقعنا في هذه الحنة فقالوا لانقبل ذلك ولننجس  
 ملاسكن وجيوبكن واحدة بعد واحدة فشرعن بالمرور من امامهم بالترتيب حتى دنت  
 نوبتي فتقدمت متزلزلة وكنت بلباس اهل البلد ولكنهم عرفوني وساقوني الى حجرة اخرى  
 فقالت احدي الراهبات خلوا عن تلك المسكينة . ومع تعسف اولئك الهنديين  
 لا ادري لاي سبب تجاوزوا عن قتلي لما سمعوا كلامها وليس ذلك الا من مشيئة الله .  
 ولما وجدت نفسي في كنف حمايتن شوش خيال ابني وبنتي ضميري وانا لا اعلم هل  
 هما في عالم الاموات ام في عالم الاحياء وكنت خائفة من خروجهما للفتيش عني وكأني  
 بهؤلاء الجارح يساقون كقطيع غنم الى المذبحة . ماذا افعل الآن وباليتني كنت  
 بعوضة ضعيفة لا طير اليها اوليتني كنت نملة صغيرة لانسل تحت الاقدام وارصهما  
 بان لا يخرجنا من مقرها بل يطلبا النجاة من الله ويتظنرا حتى يرتوي اولئك  
 السفاكون من شرب الدماء وينظني لهيب غضبهم فيرجعوا . وخلاصة القول ان  
 القتل والقتل دام ساعة كانوا يبقرون فيها البطون ويجزون الرؤس ويريقون  
 الدماء . ولما ادلم الليل اشعلوا مشعلين وبادروا بتعرية اجساد القتلى وسلب الثياب  
 وكنت وفئتني في غاية الفلق على ولدي مخافة ان يكونا قد انخرطوا في  
 عداد المقتولين

ولما فضوا اوطارهم من تأييد الجور والظلم اضرمو ناراً في قاعة الرباط  
 واشتغلوا بتفسيح الغنائم وكنت مع الراهبات في زاوية ننظر اليهم . فرأينا رئيس

هو لاء الجماعة جائئاً على ركبتيه في جانب ولم يشاركهم في الجنابة من اولها . ولكنه لم  
 ينعم من اجراء مفاصدم الا حين ارادوا ان يؤذوا الراهبات فانه زجرهم ونهاهم اما  
 انا فكانت وساومي على اطفالنا تزداد لحة بعد لحة وانا انصد فرصة للدخول الى الحجرة  
 للبحث عنهم فتمت لي فرصة لتبل المنصود وذلك ان رجلاً من الهنود كان قد اصابه  
 جرح في صدره وما زال الدم يتدفق منه حتى اغي عليه فحسوه ميتاً وما عيأوا به  
 ثم افاق من غيبته ونهض وقال لا تحسبوني ميتاً فان في رمتاً واذا ربظتم جراحي  
 ارجوان لا اموت فاضطر اولئك الاشرار ان يلجئوا الى الراهبات فان العناية بالجرحي  
 من شرائط الرهبانية فذهب بول مع راهبتين الى هذا الجندي الجروح فراقبتهم في  
 عبادته ولما رأوا الجرح طلبوا ماء لغسله للوصول الى فوهة الفرحة فانتبهت الفرصة  
 وقتئذ وحملت انا لتقدم تلك الخدمة وصببت الماء وكانت خدمتي هذه  
 اضطرارية برأى من سائر رفاق ذلك الرجل الذين تجمهروا حول الراهبات  
 فرقت قلوبهم ونظروا الي بعين الحنوة اما الجروح فان روحه فاضت بعد ساعة  
 على اثر تلك الضربة القاضية ومن النوادر ان هذا الهندي هو الذي اذى النسيب  
 اولاً . فقال بول « انظروا الى هذا الرجل الذي مات امام ابصاركم فانه هو الذي  
 اعترض علي واراد مشاهدة معبودي وسحب السلب من عني عنفاً ها اني اغسله  
 وارسله الى الخالق الذي بيده ازمة كل شيء ليرى جبروت الحق » فاغتمت الوقت  
 ودخلت الحجرة ولم اخط خطوة حتى عبرت رجلي بحجة فسقطت على وجهي وتلخمت  
 ثيابي بالدماء وما زلت امشي وقد داخلني وحشة شديدة وقلت لا يبعد ان الطغاة قتلوا  
 ابني وبنتي ايضاً وارشكت ان اصيح واقول « ايها السفاكون استخلفكم بالله خذوني  
 وقطعوني ارباً ارباً هل حسبتوني هدية فعنتم عني لا نظروا الي ضعفي ومسكتي  
 فاني من الداعداتكم » واعترف للقاري اني نطقت بعبارات كفرية فاذا لامتني والد  
 فارجوان لانصاب مصابي . فقد وصلت باب الحجرة وناديت الاولاد فما سمعت  
 جواباً وكررت النداء مراراً فما خرج نفس من تنفس فاوردت وحشتي وقلت  
 يا لعماسي وخيبة املي قتل طفلي وبنتي ثم تقدمت بضع اقدام كخائف مترقب وناديتها  
 ثانية آكن : ويل : فسمعت رقتاً جواباً خمدت بولوعي وهدمت روعي وقلعت لها من  
 عدوكا فقلا عندنا امران . فارتجت ارتباحاً شديداً من تلك الصدف واوصتها بعدم

المخروج وان ينظراني عند طلوع الشمس وعدت مطمئنة المخاطر وجلست عند  
الراهبات وهنّ يرتعدن من برودة الليل

## الفصل التاسع والعشرون

❖ اذا جاء القدر عمي البصر ❖

والخلاصة اننا قضينا هن الليلة ولما طلعت الشمس هبّ الاشرار من نومهم وحضروا  
للعركة وقوضوا خيامهم في وقت قريب وانتشروا افراداً وازواجاً وحملوا مقتولهم  
في العربات ليطرحوم في نهر جتنا على حسب الرسم الذي تعودوه ولما خلت الاطراف  
من الاشرار قالت لي راهبة ان كنت مصممة على السفر معنا فانتظي في سلكتنا وانت  
تعلمين ان الهنود لم رعاية خاصة في حقنا فتكونين مطمئنة من الصدمات . قلت نعم  
اتمكنن تصدن الذهب الى اله آباد ومن هنا الى تلك المدينة ستون فرسخاً اما نحن  
فننوي الذهاب الى مدينة كاوان بور ومسافتها الى هناك اثنا عشر فرسخاً . فقالت  
الراهبة لنا في اله آباد معبد حصين من دخله يكون آمناً مطمئناً فقلت لها امانتعلمين  
ان الجنرال وهار ايضاً في كاوان بور بنلاً كوكب اقباله ثمة . فاجبت باجمعين ان  
فرضنا ان الجنرال المذكور كانت له قدرة في الامس يمكن ان لا تكون اليوم والعاقل  
لا يترك المفر المعلوم لاجل مفر موهوم . وبعد ذلك رأينا ان ندفن جثث القتلى بان  
نجمعها في حجرة لانها كانت مطروحة على الارض بشكل قبيح لا يقتضي ناموس احد ان  
يتركها لان هؤلاء السفلة ما تركوا عملاً شبيهاً افعلوه في السموان قبل القتل وكنا  
عاريات الابدان مكشوفات العورات فجمعنا الاجساد ووضعنا بعضها فوق بعض  
وحببنا خرج من تحت الزبالة والاروات المجتمعة هناك رجل نرسنا فيه فاذا هو  
البخاه باثي وكان لما دخلت الطغاة الرباط اخذنا تحت الكثافات حتى سلم من الآفات  
لكنه كان مندهشاً مضطرباً لخوفه على زوجته واطفاله لانه كان يتصور انهم قتلوا  
وكانت عبرات الحسنة بادية على وجنتيه فخطر ببالني الامراتان اللتان عند اطنالي  
في تلك الحجرة فبشرته بذلك وانطلقنا الى الخلوة فوجد زوجته واطفاله ولما فرغنا  
نحركنا الى اله آباد وبلغنا وقت الظهر الى ساحل نهر فوقنا في ظل شجرة عظيمة



لدفع التعب والحوادث التي انفتحت لنا في هذا الطريق منفصلة لكنها ليست قابلة  
التفيد في هذا التاريخ الوجيز

وبعد بوبين من هذه السفرة رجعت بعثلي الخفيف الى متابعة رأيي السخيف  
في الذهاب الى كاوان بور وكلما اصرت الراهبات على الانصراف من خيالي ما  
انصرفت واني القدر المعلوم الا انفاذ ما اصره من الازل وكنت اتصور اننا  
بعد الورود الى كاوان بور نبدأ اسباب معاشنا ولوازم اتعاشنا وكان البغاه باشي  
برغبني في ذلك الطريق . والحلاصة اننا ودعنا من في اليوم الرابع وتحركنا الى  
كاوان بور وما زانا تقطع الطريق حتى اشرطنا على المدينة ولا تعلم ان «نانا  
صاحب» الشريف المشهور الذي هو رئيس فرقة طاغية الآن مالك كاوان بور  
ومضافاتها والجنرال وهار الذي عليه جل انكالا . واستنظرنا محصور في المستشفى  
النظامي وقد اطعنا على ذلك بعد قطع المسافات والوصول الى ساحل نهر ككك  
وقد بلغنا هذا المكان بوضع غريب فان عاكر نانا صاحب كانوا يجسسون ضفاف  
النهر ليا سري الافرنجيين الذين يتوون الذهاب الى كككونا واله آباد وبادرس من هذا  
الطريق فشاهدنا بعض مسلمي الرستاق ورق لحالنا وقال ان كنتم تريدون الحياة  
فعليناكم بالاحتراس من دخول المدينة واختفوا في شمائل نهر ككك وغياضه  
الملته عسى ان يحصل لكم فرج من الشدة ثم استفرزته المروية وبذل لنا مقداراً من  
الطعام واللباس فوق تلك الحنارة والاشناق . فندمنا حيث لا ينفع الندم من عدم  
سماع نصيحة الراهبات ولو اضعفنا الى نصابهم ولم نغتر باتباع آرائنا السخيفة  
وعقولنا الناقصة لكننا الآن على غاية ما يرام من الامن والراحة والرخاء والدعة ونعوذ  
بالله من مخافة العقل وعمارة البصر . هذا وكانت الشمس حينئذ قريبة من الزوال  
فلبت لرفيقي اذا اظلم الليل فاندخل المدينة فصدق رأيي وذهبنا الى حوالي الحصار  
فما وجدنا احداً من مخالف وموافق وقد احمرت مناظر المساجد وقبب المعابد من  
انعكاس الشفق عليها ونهر ككك يجري ويتوي بجانبنا كنعبان من الذهب فرالت  
بعد عدة دقائق حرق الشفق وخيم الغسق ثم اسدل بحجب الظلماء رويداً رويداً  
واختفت زواها علامات الامنية وانار الرجاء عن انظارنا فمسنا الاعياء وقنعنا من  
شدة التعب عن غير اختيار وكان البغاه باشي لعلمه بالوسفي يخرج في بعض الاحيان

آتت الموسيقى وبشغلنا بايقاع الانغام تشبهاً للروح . اما في هذا اليوم فكانت احسن  
بنكية قريبة او عزم على ادبار عاجل فكان منقبضاً على غير عادته . وفي هذه الحالة  
سمعنا خفق العمال ورأينا فرقة فرسان كانوا خمسين نفرًا تقريباً مروا من امامنا  
راكهين افراسهم في اشد ما يكون من التعجيل . فامضت لحظة حتى رأينا طائفة  
أخرى فلاح لنا ان المارين اولاً من النثة الطاغية وهؤلاء القادمون انكليز فقعدها  
في قارعة الطريق وانظرنا وصولهم ولما وصلوا تكلمنا معهم باللغة الانكليزية فوقنوا  
باجمعهم دفعة واحدة فشرحنا لهم على سبيل الایجاز قصتنا . وكان زعيم تلك الجماعة  
شاباً لا يعرف معنى المروءة او الشهامة فما اكرتت بنظرنا وقال « نحن معذورون  
لاننا لا نقدر على قولكم . وقد غرقنا في تيار الحيرة ولا نعرف مخرجاً ولمجأ لحفظ نفوسنا  
لو كنتم رجالاً أمكننا ما افقنكم لقدرتكم على الحرب والفرار عند الغلبة والانهزام  
اما الآن فإذا نفعل بنسوان واطفال صغار وهذا الرجل الذي معكم ان كان يريد  
المرافقة فبيلة » فقال البهجة باشي لا ينسني لي ترك زوجتي واولادي ولما سمع ذلك  
الجواب نني عطائه عنا كراً وانته ورضي من غير ان يتكلم بكلمة واعرضوا عنا فانفتحت  
انا وبنتي مع زوجة البهجة باشي وعدونا في اثر ذلك القائد رئيس الجماعة وقلنا « بالله  
عابك ايها الغيور العظيم الشأن وخادم ملكة انكلستان السنات ثبات نوعك فابن  
رعاية المحفوق وملاحظة الانسانية ولو ازم البشرية الممت شاباً تريد بعد الصيت  
وشرف الذكر فابن حميتك وفتونك هل يجوز في قانون مروءتك ان نتركنا في  
هذه الورطة الويلة بعد ما تخلصنا من تلك المخاطرات ولذنا بك كيف نتركنا في  
بيداء الحيرة ونذهب . تصور بالله عابك ان كانت امك واختك في حالنا ما الذي  
كنت تفعله » فتحدث فرسه وقال « اطلب سلامتكم » ومر من غير ان يجيرنا فصرنا  
اخرب من اقباض على الماء ومع ذلك ما قفنا على حل الرجاء وعقبناه ونسكنا به واخذنا  
بعنان فرسه وذكرنا اسمنا واسمي ازواجنا وما اخبرنا دقيقة من ذكر اصلنا ونسبنا  
وانسابنا ولما فهم اننا صواحب حسب وعنة وان صهري كان معه في الخدمة العسكرية  
رق لحالنا وقابلنا وجه طلق ولاحت على وجهه نياشير الرضاء . ورضي ان يذهب  
بنا الى ما من الجنرال وهلم واخذ كل واحد منهم واحدة منا من خانوا على فرسه وما  
زالوا بنا حتى وصلنا ما من المرदार المذكور وكان قد حاصره نانا صاحب وانددت

المحصرة حتى وهنت قوى المحصورين ونددت ذخيرتهم وما وافاهم مدد . وبعد  
الاقامة بضعة ايام رأوا ان التوقف في المستشفى بهن الحالة لا يجدي نفعاً فرضي السردار  
بالنسيب على شرط التأمين وسلامة الذين في مدينته ليعبروا بهر كرك الى مدينة اله  
آباد . ولا اشرح شروط تسليم هذا السردار وخروجه من استحكامه لان المؤرخين  
يبتنونها في طي نواريجهم

## الفصل الثلاثون

### ❖ الخروج من المستشفى ❖

وفي اليوم الذي امتنع امر المتاركة كان يوم خروجنا من المستشفى فاقعدوني  
مع طفلي وبنتي في عربة مسقفة والباقيون في عربات اخرى وساقونا نحو الساحل  
وكانوا قد اعدوا عدة كثيرة من السفن الصغار والزوارق وحاف نانا صاحب  
ان لا يضر شراً للشخص الجنرال وهار واتباعه الذين في حمايتهم . وكانت العساكر  
الهندية قد اصطلت في طرفي المعبر ووراءنا صفرة ضخمة والوف من الناس وما  
اصطفاه الهنود الا لا يهامت انهم حضروا لحفاظتنا . فعبنا من وسط الصفوف حتى  
بلغنا شاطئ . النهر وركبنا السفن

ولما تحركت سفينتنا سمعت لله شكراً وقلت لقد ابنت دوحه الصبر وغيض  
طوفان البلايا واستوت سفينة اعمارنا بعد موج الهلاك على جودي النجاة . وقصرت  
ابادي الاعادي من التعدي والتناول وحال الماء بيننا وبين الاشرار فاطبقت  
في عن التبشكر واذا بهؤلاء الاراذل الانذال اطلقوا المدافع اليها من كل الجهات  
فخرقت القنابل تلك السفن واغرقت جمعا كبيرا وبافت سفينتنا ثلثة عظيمة وكنا  
على وشك الغرق فسافنا الريح الى الساحل حتى خرجنا الى البر .

ولا ريب ان تلك الوقائع ثبتت في بطون الكتب والصحف مع ما ارتكبه الاهاند  
من المنكرات وكيف نقضوا عهودهم فخدعوا العساكر والجنود واغتروا بظواهرهم حتى  
قتلوا اشرقتلة . وحينئذ اخنبا الجنرال وهار في غيضة فاسروه على النور وقتلوه من

ساعينو اما انا مع بنتي وابني فوقعنا فوق الرمال وجعلنا الموت نصب اعيننا نتنظر ان  
يحملوا علينا ويسنكوا دماءنا . اغمض عيني من غلبة الخوف وافضحها في بعض الاحيان  
فا ارى الآ بقر البطون وتقطع الابدان ورمي الاطفال الصغار الى الهواء وقطعها  
نصين في اناء ستوطها فاخفيت طفلي تحت جسدي وثمت فوقه كدجاجة تحضن فراخها  
وما يستحق التعجب ان الاشرار كانوا يعملون رؤس القتلى وارجلهم وايديهم آلة للعب  
والفريج يطرحونها من مكان الى مكان كاطفال المدارس اذ يلعبون في الشتاء  
بكرات الثلج

ولم يزل النك والتل جارياً حتى دخل نانا صاحب مع جماعة من ارباب  
المناصب في هذه المذبحة فاشار الى الاشرار فاعمدوا السيوف فجمعنا نانا صاحب  
وكات بقية المذبحة من الذكور والاناث مائة وثمانية اشخاص . فامر بادخالنا  
في المدينة فاوردونا الى مكان امن وهباً واسباب معيشتنا . وهذا اول مرة رأيت  
هذا الشخص اعني نانا صاحب وقد هاجت الضائر وتنوعت الاقوال في حقه  
على اني ما شاهدت منه الا خيراً . قليلاً كل احد ما يقول . فاني لا احسبه مفصراً  
في محافظتنا ولا اظنه سبباً لهذا التل الاخير بل وجدته شاباً طلق الحيا متين  
الحركات مجدداً في الامور غير هازل تلوح على سباه علائم الكفاءة ذا قريحة حسنة  
يبلغ من العمر ثلثين سنة ولا اتردد في قولي هذا لان اولئك الناس الداخلين في  
حوزة حمايتهم او اطاعوا او امنوا ما وقعوا في المهالك الآتية

والذي سبب نقض العهد انا لما ركبنا السفن لتعبرت كرك بعد تقرير الشروط  
اشتعل مستودع البارود الكائن في المستشفى النظامي على حين غفلة من غير ان تظهر علة  
الاختراق فظن الاهدان جمعاً من الانكليز تحصنوا ثمة بخيال المدافعة والخاصمة  
وكان الجنرال هاولوك على مسافة قريبة من كاوان بور وقد جاء لاستخلاص وهلم  
ففتفتت عندهم تلك الظنون فحكوا باعدامنا قاطبة . وبعد ان ظهرت لهم برايتنا  
من هاته الجهة نجانا نانا صاحب ونعهد بمراسمتنا . ويجمل القول انه امتدت اقامتنا  
في ذلك المأمن خمسة عشر يوماً على شرط ان لا نتخبر مع الخارج مطلقاً . فا تركت  
بعض النسوان رذالتهم فاعى الفدر ابصارهن وشرعن بالمكاتبه والخابرة من داخل  
المأمن بمعاونة الجواسيس الذين كانوا يربطون المكاتبه بالاخبار الصغار وبزمويتها

من الخارج الى داخل حائط المحصار . فعلينا ان عساكر انكثرة الذين في معية الجنرال  
هاولوك هزموا اتباع نانا صاحب سيدخلون المدينة قهراً في اقرب وقت . وفي  
اليوم الثالث سمعنا طلقات مدفعية متوالية كانت تخبرنا ان في خارج المدينة انقلاباً  
عظيماً .

وفي الحال دخل ما مننا ما مور من ما موري السردار وأمر باخراج النسوان اللاتي  
خابرن الخارج فاخرجهن فما خرجن الا وقتلن ثم هجم الاهالي بهذا المأمن وشرعوا  
باراقفة الدماء وازهاق الارواح . كنت أرى الموت واقفاً يحد الرؤوس ويحني نفائس  
النفوس . وما زالوا ياتون على الصفوف واحداً بعد واحد . ولما انتهت الكمانه الى  
الاهزع ولم يبق في القوس منزع بلغت نوبتنا فصبوا بنتي بخصلة من شعرها وقتلوها ثم  
اخذوا طفلي وقتلوه فسقطت وما فهمت ما فعلوا بعد لاني مكثت ثلاث ساعات في  
حالة الاغماء ولما فتحت عيني وجدت المصح قد سالت من مسابيل الابدان وجرت الدماء  
كالانهار في الوديان وشاهدت رجالاً ونساءً من بقية الانكليز قد اجتمعوا حولي ولكن  
الحزن غلب علي فطففت ابكي وانوح واشيق واصيح . آه هل على كفة الارض امرأة  
بتعاسني ومع هذا لا يدركني الموت ولا يبرحني لئلا ارى تلك الاهوال التي تنظر من  
معاينتها الاكباد . ولو كانت امرأة حجراً لما انت شجراً . او حديداً لسالت صديداً  
لو ان مائي يصخر الديد لانصدعا او بالثرى نار او بالحالق انقلعا  
لو ان مائي بطائر الجولانتشرت رباشة وغدت اوصالة قطعاً

وخلاصة القول ان الجنرال (هاولوك) فتح المدينة بعد بضعة ايام وارسلني من  
كاوان بور الى اله آباد وسافرت منها الى بنارس ثم كلكوتا . فركبت منها باخرة  
(كلومبو) حتى اتيت باريس ولاقيتكم . وهذه قطرة من بحر نوابي وهاك ايها المطالع  
الكرم شرح قصتي . فما افعل بعد ذلك وقد قيل غاية كل متحرك الى سكون . ونهاية  
كل متكون ان لا يكون . وليعتبر المطالعون بمجاري حالاتي وليؤدوا حقوق النعم  
والامنية والرفاهية التي يتنعمون بها فان يد النضاء فوق ايديهم . تطرح ارباب العزة  
في مطارح الذلة وتقع اصحاب الغنا . في رماد الغنا . والله العزة يفعل ما يشاء  
وهو على كل شيء قدير .

❖ خاتمة الرواية ❖

قد حصل الذراع والله الحمد من تعريب هذه النصة وتبويضها في ناسع عشر شهر جمادى الآخرة من شهر سنة ١٢١٦ الهجرية الموافقة مع سنة ١٨٩٨ الميلادية . وارجو من الادباء ان يفضوا طرفهم عما يرون فيها من الاخلال والاحجاف فاني انما اقدمت على صناعة الترجمة من باب التطفل وتناولت على ذلك طمعاً في طلاوة الجديد مع قصر الباع وضيق الذراع واملي وطيد انها تقع موقع الاستحسان لرفقة ما اشملت عليه واقول في ختام كلامي

اللهم ادم فينا نعمة الامن والامان ووقفنا ان نرى الحب والولاء قائماً بين الامة المحمدية والجماعة الاسلامية لتتفق كلمتنا وتجتمع سواعدنا فتخلص من عبث الاجانب فان هذه سعادة عامة وغبطة نامية وصلى الله على نبينا الاكرم وعلى آله وخلائقه العظام ما نوالى الملوان وتعاقب القمران ( المترجم )

« ميرزا يوسف خان »

( بتبريز )



تمت

مؤلفات جرجي افندي زيدان منشىء الهلال

- (١) فتاة غسان \* هي الحلقة الاولى من سلسلة روايات تاريخ الاسلام نشرح حال العرب في آخر جاهليتهم واول اسلامهم مع ذكر عاداتهم واخلاقهم الى فتوح الشام والعراق وهي جزآن ثمن كل جزء عشرة غروش والوسطة غرش ونصف
- (٢) \* ارمانوسة المصرية \* (طبعة ثانية) هي الحلقة الثانية من سلسلة روايات تاريخ الاسلام تاريخية غرامية نشرح حال مصر لما فتحها المسلمون سنة ١٨ للهجرة مع عوائد اهلها واخلاقهم وازايامهم . ثمنها عشرة غروش واجرة الوسطة غرشان
- (٣) \* عذراء قريش \* هي الحلقة الثالثة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وهي تاريخية غرامية تتضمن مقتل الخليفة عثمان وقائع الجمل وصنن والتحكيم والخوارج الى مقتل محمد بن ابي بكر ثمنها عشرة غروش واجرة الوسطة غرش ونصف
- (٤) \* ١٧ رمضان \* او الحلقة الرابعة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وهي تاريخية غرامية تتضمن مقتل الامام علي وتفصيل امر الخوارج وخروج الخلافة الى بني امية ثمنها عشرة غروش واجرة الوسطة ستون بارة
- (٥) \* الملوك الشاردي \* (طبعة ثانية) رواية تاريخية ادبية تتضمن حوادث مصر وسوريا في اوائل القرن التاسع عشر على عهد المغتوركة محمد علي باشا والامير بشير الشهابي ثمنها ثمانية غروش واجرة الوسطة غرش ونصف
- (٦) \* اسير الممهدي \* رواية تاريخية غرامية تتضمن حوادث عراقي والمهدي وحادثة سنة ١٨٦٠ في دمشق . ثمنها عشرة غروش صاغ واجرة البريد غرشان (طبعة ثانية تحت الطبع)
- (٧) \* استبداد الماليك \* (طبعة ثانية) رواية تاريخية تتضمن حوادث آخر القرن الثامن عشر ثمنها ثمانية غروش واجرة الوسطة غرش واحد
- (٨) \* جهاد الحسين \* رواية ادبية غرامية ثمنها ٦ غروش صاغ واجرة الوسطة غرش ونصف
- (٩) \* تاريخ مصر الحديث \* من النتج الاسلامي الى هذه الايام مع ملخص تاريخها القديم وهو جزآن كبيران فيو مائة رسم واربع خارطات ثمنه اربعون غرشاً صاغاً واجرة الوسطة ٥ غروش

- (١٠) \* تاريخ الماسونية العام \* وهو تاريخ الجمعية الماسونية منذ نشأتها الى هذه الايام ثمة عشرون غرشة صاغها واجرة البوسطة غرشان
- (١١) \* التاريخ العام \* الجزء الاول يتضمن تاريخ مالك اسيا وافريقيا وخصوصاً مصر مزين بالرسوم ثمة ثمانية غروش صاغ واجرة البوسطة غرش واحد
- (١٢) \* الفلسفة اللغوية \* فيها بحث تحليلي للالفاظ العربية ثمة عشرة غروش واجرة البوسطة غرش واحد
- (١٣) \* جغرافية مصر \* (طبعة ثانية) تتضمن جغرافية المديرية والمحافظات وخصوصاً القاهرة ثمةا وحدها ثلاثة غروش ومع المخارطة ٥
- (١٤) \* ردّ رنان \* ردّ على انتقاد تاريخ مصر الحديث ثمة غرش واحد
- (١٥) \* ملخص تاريخ اليونان والرومان \* مزين بالرسوم ثمة ثلاثة غروش والبوسطة عشرون باره
- (١٦) \* تاريخ انكلترا \* هو ملخص تاريخها ينتهي الى آخر الدولة البوركية سنة ١٤٨٥ وفيه رسوم واشكال ثمة ٤ غروش والبوسطة غرش

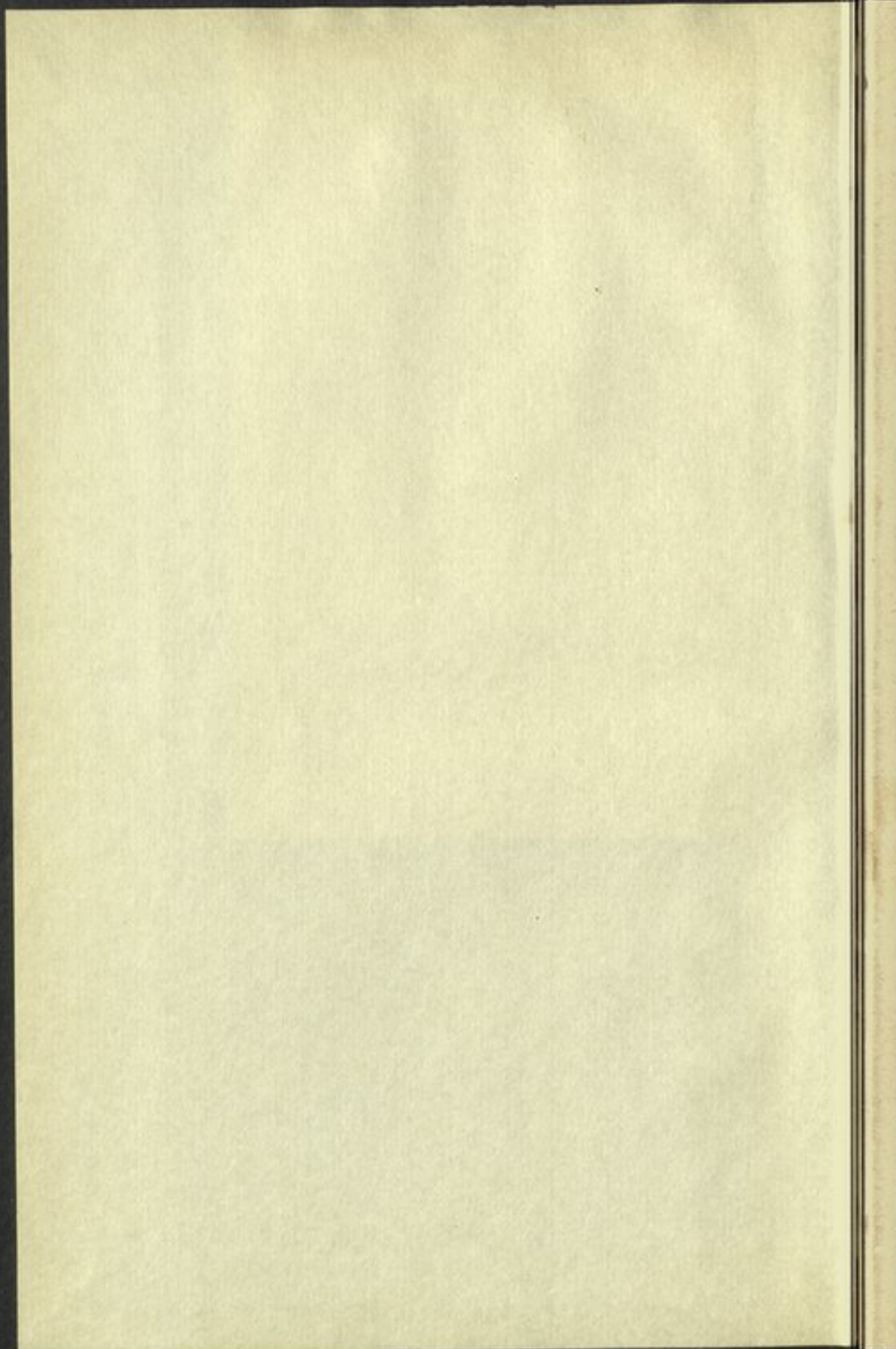
## الممالك

هي مجلة علمية تاريخية صحبة لمنشئها جرجي افندي زبدان تبحث في كل الابحاث العربية الاسلامية وتواريخ الامم الشرقية والاثار الشرقية والاداب الشرقية وفي كل ما يحدث من الاختراعات والاكتشافات في العلم والصناعة ويلحق بها فصول من الروايات التاريخية الاسلامية . بدل اشتركا ٦٠ غرشة في النظر المصري وعشرون فرنكا في الخارج ومن اراد الاطلاع عليه فيطلب مثلاً منه فيرسل اليو بجائناً

وتطلب هذه الكتب من مكتبة الهلال بالنجالة بمصر

(المراد بالفرش في هذه النفاة الفرش المصري وهو يساوي ربع فرنك تقريباً)







A. U. B. LIBRARY

892.78:M663thA:c.1

مينارد، فلكنس  
ثورة الهند او المرأة الصابرة  
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01044052

892.78:M663thA

• مينارد

• ثورة الهند او المرأة الصابرة

DATE	Borrower's Number	DATE	Borrower's Number
MAR 25 '98	AT BINDING		

892.78  
M663thA

